BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

منتدى الحوار

Dialogue Forum

(DF)

التفكير العلمـــي والتنمية البشريـــة

جابر عصفور:

في الحقيقة، أشعر هذه الليلة بالسعادة مرتين، مرة لأنه شرف لي أن أقدم أستاذي الدكتور إبراهيم بدران، صحيح أنني درست في كلية الآداب وتخرجت في قسم اللغة العربية، لكنني عندما كنت مدرسًا صغيرًا، كان الأستاذ الدكتور إبراهيم بدران رئيس جامعة القاهرة التي أتشرف بالانتساب إليها، وعندما كان رئيسًا للجامعة رأينا من خلقه وعلمه ما جعله نموذجًا يبقى في أذهاننا إلى اليوم، نموذج رئيس الجامعة الذي يحترم الجامعة ويقدسها ويؤمن برسالتها إلى آخر لحظة في سلوكه التدريسي والإداري في الوقت نفسه. ولا أريد أن أتحدث عن مشاهد كثيرة رأيتها بنفسي أو مواقف كثيرة بلغتنا فزادتنا احترامًا لهذا الرجل الذي كان يشرف به أي منصب يتولاه. وقد عمل وزيرًا للصحة فكان خيرًا وبركة على وزارة الصحة، وظل يعمل ولا يزال يعمل إلى اليوم ولا يتوقف عن إنجاب أجيال وأجيال من الباحثين سواء في مجال الطب الذي برع وتميز فيه وكانت له فيه أجيال من التلامذة، أو غير ذلك من المجالات التي تدين له بالفضل، ولذلك فأنا أشعر بسعادة غامرة وبفخر ممزوج بالفرح عندما أقدم أستاذي الدكتور إبراهيم بدران الذي تأثرت بأستاذيته وبإدارته الجامعية، هذه الإدارة التي رسخت في داخل جيلي مجموعة من القيم التي نعتز بالانتساب إليها والدفاع عنها في وقت الخطر.

ويقودني هذا إلى سعادتي الثانية والغامرة وهي أن الدكتور إبراهيم بدران آثر أن يتحدث اليوم عن التفكير العلمي والتنمية البشرية، ذلك أننا نعيش في مجتمع بصراحة بسيطة لا يعرف التفكير العلمي، ويسيطر عليه نوع آخر من التفكير المناقض للعلم، لنقل التفكير الخرافي أو لتقل التفكير الغيبي الجامد أو لنقل ما نشاء من الصفات، لكن من المؤكد أننا نعيش في مجتمع لا يعرف التفكير العلمي، وأن التفكير العلمي لم يصبح على الآن مكونـــاً أساسيـــاً من مكونات ثقافة هذا المجتمع، فما بالكم ونحن نعرف من خلال عنوان المحاضرة أن التفكير العلمي هو الأساس الأول للتنمية البشرية، ولذلك، فأنا سعيد مثل الكثيرين بأن الدكتور إبراهيم بدران قد اختار موضوع التفكير العلمي وعلاقته بالتنمية البشرية، ويسعدنا كل السعادة أن يحاضرنا في هذا الموضوع.

إبراهيم بدران:

قبل أن نبدأ الحوار في الموضوع، أود أن أقدم نفسي في عجالة سريعة لعل فيها عظة وفيها تجربة قضيت عمري خلالها، فكل إنسان له سمة في حياته وله سبيل قد يكون بسبب عقبات أو آلام أو تحديات أو فرص، أساسا كنت طالبـــًا في كلية الطب ثم أصبحت أستاذًا للجراحة، وسبب اختياري لموضوع محاضرة اليوم يعود إلى أنني عشت بكل خلية في جسمي قضية التعليم وتنشئة الفرد، وقد بدأت أعمل في الدولة منذ عام ١٩٤٧ أي منذ ستين عاما بالتمام والكمال، وعلى الرغم من المصاعب التي مررت بها في حياتي، فإنني لم أندم يومًا واحدًا على الطريق الذي سرت فيه. وقد عشت حياتي كلها معلما يعلّم لكن متعته في التعلُّم، حياة كاملة قضيتها ممسكا الطباشير أو المشرط أو الورقة والقلم وأحاول حتى اليوم التعلم الرقمي وتعليمه. قضيت عمري أعلم تلامذتي أولادي، لكنني أود أن أعترف أن المعلم يتعلم أيضا من تلميذه، ويستمر تعلمه من المجتمع مدى حياته. وفي الحقيقة، فقد أيقنت أنني كنت أختزنها في نفسي حتى دعيت في يوم من الأيام إلى زيارة جامعة فيلادلفيا، وعلى باب الدخول قرأت لافتة مكتوب عليها "Learn glad and teach glad " أو "اسعد بالتعلم والتعليم"، وعرفت وقتها أن من يمتهن مهنة التدريس ويتمتع بها يكون أحد مصادر متعته الأساسية هي أنه يتعلم ممن يعلمهم ويستفيد وهو يدرس لتلامذته أشياء كثيرة قد لا يشعر بقيمتها ولا جدواها ولا أهميتها. تعلمت من الزمن والناس ومن تلاميذي أكثر مما تعلمت من الكتب والمراجع، وطيلة حياتي العملية التي تبلغ ستين عامًا لم أسعَ ولم أتأفف ولم يؤخذ رأيي في السبيل الذي مشيته، متخذًا من حكمة تعلمتها من رجل تعلمت منه الكثير كان رئيسًا لجامعة القاهرة في وقت كنت أشغل فيه منصب نائب رئيس جامعة القاهرة وهو الدكتور حسن إسماعيل رحمه الله والذي كان دائمًا ما يقول لي "أقام العباد حيث أراد"، وذلك لأنني كنت رافضًا لأن أتولى منصب نائب رئيس الجامعة لارتباطي الشديد بتلامذتي ومرضاي الفقراء والذين كنت أحبهم كثيرًا، إلا أنني كنت في مؤتمر في إسبانيا فعدت لأجد من يقول لي إن وزير التعليم يبحث عني، فذهبت إليه فأخبرني بأنني مرشح لأن أكون نائب رئيس الجامعة للدراسات العليا والبحوث، فأوضحت له أنني سعيد بالعمل الذي أقوم به ولا أريد أن أتركه، فأوضح لي أنه قد تم إصدار القرار الجمهوري فسألته أيصدر القرار الجمهوري دون حتى أن تستشيرونا؟ فأجاب بأن هذا هو المتبع مع توفر الخبرة والنفع وعندما سألته كيف السبيل إلى التخلص من هذا العبء، فأجابني مازحـــًا بأن الحل هو أن أرتكب جريمة ويتم القبض عليّ بسببها وعلى إثر ذلك فسيلغى القرار الجمهوري! وبالطبع، قبلت الوظيفة وعندما ذهبت أشكو همي للدكتور حسن إسماعيل رد عليّ قائلا "يقيم العباد حيث أراد"، ومنذ هذا اليوم تركت نفسي ليقدر لها الله أقدارها وليفعل سبحانه ما يشاء.

وعلى مدى أربعين عامـــًا من الأعوام الستين السالفة الذكر، تنقلت بين خمسة مجالات، فقد تنقلت أولا من التلمذة إلى الجيش، بعد أن تخرجنا في عام ١٩٤٧ كُلفنا في الجيش في ١٥ مايو ١٩٤٨، وكانت رحلة الجيش متعة نفسية وشحذًا نفسيًّا لأننا شعرنا وقتها أن الحياة رخيصة، وكان يحدث أن نتناول وجبة الإفطار مع بعض الزملاء وأثناء اليوم يحدث قتال فيعودون في آخره جثثا هامدة، ومن هنا

عرفنا أن كُلاً منا يؤهل لمهنة، إلا الجيش ذلك الذي يؤهل إما إلى الانتصار وإما إلى الموت، وكانت هذه هي تجربتي مع الحياة في هذه الفترة. وقد أراد الله لي الحياة فعدت من الحرب وأكملت دراستي العليا وحصلت على الدكتوراه وأصبحت مدرسًا بكلية الطب ثم أستاذًا بها إلى أن انتقلت إلى الجامعة، وقد ساعدت وأنا أشغل منصب نائب رئيس الجامعة في بناء صرح كان أملي أن يصبح نورًا في المجتمع، وقد عملت فيها بروح البناء لبلد سأدفن في ترابها، وكنا جميعًا في هذا الوقت نتفانى من أجل إعادة بناء الجامعة، وقد مكثت حوالي أربع سنوات في هذا الوسط العلمي الذي احتواني، وفي غفلة من الزمن وجدت نفسي في الوزارة، حاولت أن أكمل رسالتي في الجامعة وذهبت إلى سيد بك مرعي وكان وقتها مريضا رحمة الله عليه وكان يتولى منصب رئيس مجلس الشعب وطلبت منه خطاب توصية حتى يعفو عني السيد ممدوح سالم رحمة الله من أن يعينني وزيرًا للصحة، فأجابني مندهشًا بأنه لا يوجد أبدا من يطلب واسطة للتخلي عن الوزارة، فأجبت مؤكِّدا على فكرة أنه إذا وفقني الله في استكمال رسالتي في جامعة القاهرة، فسأستطيع أن أهدي مصر شيئًا كبيرًا. وحرر سيد بك مرعي الجواب وذهبت به إلى السيد ممدوح سالم، وأثناء حديثي معه وجدت التليفزيون يصور لقاءنا، وقبل أن يفتح الخطاب قال لي إنني ظهرت على الهواء بصفة وزير الصحة. وبعد عامين، انتهى التكليف بالوزارة وعدت بعدها كرئيس لجامعة القاهرة، وقد مكثت بهذا المنصب أكثر قليلا من عامين حيث ظللت أكمل الرسالة على مستوى أعلى، وقمت مع المجموعة التي كنت أعمل معها بفتح أربعة أقسام جديدة في مختلف الكليات وليس فقط في كلية الطب، ومن هذه المجموعة كنت أفكر وأعمل من خلالها وقد خرج رؤساء وزراء ووزراء ومحافظون ورؤساء جامعات، كانوا تحديدا عشرة أشخاص من جميع الجامعات. وبعد ذلك، تم نقلي كرئيس لأكاديمية البحث العلمي، ولا أعرف ما السبب وراء نقلي لهذا المنصب؟ هل هو العقاب أم الأمل أم استكمالا للاختبارات التي كتبها المولى؟ وقد فسرت الأمور تفسيرا إيجابيا وأكملت الطريق، ورأيت في نفسي أستاذ الجراحة الذي اعتاد على أن يعمل في عمل محدد وفي ظروف محددة في ظل مشكلات معينة، والذي اعتاد في الكلية والجامعة على مشكلات الطلبة ومدارس الحكيمات وهيئة التدريس ومختلف المشكلات الجامعية والمجتمع المحيط بها، هذا الأستاذ الآن يرأس أكاديمية البحث العلمي حيث تعلم أن البحث العلمي يساوي قضايا تنمية الوطن، وتغيرت الرؤية بالكامل، فقد كان الهدف أثناء الوجود في الجامعة هو تعليم فرد لكي يصبح نورًا في المجتمع وحتى يستطيع أن يتولى القيادة أو أن يتحول إلى إضاءة في مجتمع محتاج وذلك بما اكتنـــزه من حصيلة جهد أساتذته، أما أكاديمية البحث العلمي فقد قضيت منها أربع سنوات ساعدت على تغيير التصور بالكامل في قمة البحث العلمي. وكنت قد بدأت أستقر وكانت أغزر فترة أنتجت فيها خلال حياتي الوظيفية واجتهدت فيها بالمذاكرة والاطلاع لمجاراة الرؤية الجديدة التي حاولت تطبيقها. وفجأة وجدت نفسي منقولا إلى المجالس القومية المتخصصة، وهناك رأيت مجتمعا مصريـــًا مختلفًا لا ينظر في تخصص واحد بقدر ما ينظر في مشكلات تعتري سبل التنمية، فالجامعة لها طريق والأكاديمية لها طريق والوزارة لها طريق، لكن حياة المجالس القومية المتخصصة كانت تركيزًا في دراسة مشكلات المجتمع على الاتساع.

وما أود أن أقوله هو أن الحياة اختبارات واختيارات، لكن مواجهة هذه الحقيقة لا يتأتى إلا بقبول ما بالصدق، الصدق مع النفس والصدق مع الناس وهي صفة يُحمد الله عليها. والشيء الثاني هو الرضا بما قسمه الله والحمد لله لما أنعم، لكن في كل خطوة كانت هناك تحديات ومتاعب وعدم اطمئنان، لكن بالاعتماد على الله وبحب الناس استطعت أن أواجه المشكلات، ولا أنسى قصة حدثت في يوم من الأيام حيث كان هناك أستاذ يتم فصله من الجامعة بدون تحقيق، وكنت في هذا الوقت خارج الجامعة أشغل وظيفة أخرى، ولم أتصور أن يحدث هذا في جامعتي، وكنت واحدًا من خمسين شخصًا كلهم موافقون على فصله ما عداي، وقد أُخذ هذا الموقف ضدي، وتم إبعادي عن جامعة القاهرة على الرغم من أن المحكمة قد أعادته إلى منصبه في الجامعة، وفي وقت فصل هذا الأستاذ تصورت أن أحد الأعمدة التي ترفع قباب جامعة القاهرة قد انهدت، وكانت قناعتي بهذا الرأي المضاد أحد نقاط التحول في حياتي، لكن هي التي بفضلها تم نقلي من الجامعة قبل نهاية مدتي فيها بسنتين إلى أكاديمية البحث العلمي، تلك التي استفدت فيها كما لم أستفد في حياتي في محاولة خدمة مصر وتحقيق بعض آمالها.

وأود أن أؤكد أن حياتي تتحدد في ثلاث كلمات، السؤال وإضافة المعارف، والتساؤل بحثـًا عن مسبباتها والمساءلة وقبول التقييم من النفس والمراجعة من الغير، فلابد للإنسان أن يعيش هذه الكلمات، أن يسأل وهو يقرأ ويتساءل حتى يعرف مسببات ما قرأ، ويسائل نفسه عن ما قد استفاده وما قد أضافه. كذلك، يجب الجهر بالرأي الصادق حتى لو تسبب في الضرر، كل ذلك لم أندم أبدا عليه إيمانا بأن ما أصابنا لم يكن ليخطئنا وأن ما أخطأنا لم يكن ليصيبنا، وأن من نعم الله علينا أن فعل ونسب إلينا، وأنه من نعم الله إلينا أيضا حوائج الناس إلينا حتى لو لم نكن نعرفهم ولو لم يطلبوا منك المعونة، كلها قضايا حكمت حياتي في ستين عامًا، والنقطة الأخيرة التي أود أن أثيرها هي أن الرزق مكفول بصاحب الرزق بفضل الرحمن الرحيم، الله سبحانه وتعالى.

مما سبق كنت أود تقديم نفسي قبل أن أشرع في الحديث عن موضوع التفكير العلمي والتنمية البشرية مع التركيز على التكوين التربوي والعلمي للطفل بداية للتغيير. لقد تعمقت في هذا الموضوع "قضايا التكوين والتعليم".

ومن هنا، أبدأ حديثي بذكر الله وحمده حمد الشاكرين لفضله على البشرية بهداية العقل إلى كل ما ينفع المخلوقات راجيـًا الاقتراب من الموضوع المعروض وتحقيق المنشود. ومن الكلمات التي أود أن أستشهد بها في البداية والتي أثرت كلماتها في حياتي. وكلمات للفيلسوف التعليمي جاك ديلور والذي كان أول رئيس للوحدة الأوروبية وكان يشغل قبل ذلك منصب وزير الثقافة في فرنسا، وأهل الثقافة يفكرون بطريقة مختلفة عن هؤلاء الذي يعملون في مجال العلم التطبيقي مثلي، والثقافة هي الخيمة المضيئة التي تحيط بالحياة والطبيعة بما تحتويه من كنوز ومعارف وحِكَم، فهم الذين يرشدون الإنسان تكوينًا وتأهيلاً لمواجهة الحياة وتحمل أعباء المستقبل.

قال جاك ديلور في كتابه الكنـــز المكنون الذي أصدرته هيئة اليونسكو في التكوين البشري للإنسان: "إن المتعلم لابد أن يعيش عصره بما فيه ويمارسه ومعرفة ما قبله وتجاربه، وما بعده وما يتصوره". وقال كذلك "إن طالب العلم والقائمين عليه لابد أن يلتزموا بأربعة ثوابت:

١- أن يعرف كيف يعلم وأن يتعود ليفكر ويستوعب ويستنتج بالتفكير العلمي واستعمال العقل.

Le Savoir - Scientific Thinking

٢- أن يعرف كيف يعمل وإذا عمل يعرف كيف يجوِّد ويضيف.

Savoir Faire - Mastering Technicalities

٣- أن يكوَّن ليعلم كيف يكون حرًّا ذلك بالحفاظ على نفسه وكيف يستفيد من معارفه في تشكيل حياته.

Savoir Etre – Personal Freedom

٤- أن يتمتع بحياته وأن يعرف كيف يعيش مع نفسه والآخرين يباريهم وينافسهم ومتعاونا معهم في الوقت نفسه.

Savoir Vivre – The Art of Living

ومن هذا المنطلق، ابتكروا كلمة في اللغة الإنجليزية تجمع بين الـــCompetition والـــ Cooperation وأطلقوا عليها Co-optition ، وهي كلمة غير موجودة في القاموس لكن معناها أنه لا مانع أن يتعاون ذوو المصالح المشتركة لكن لا مانع أيضا أن يتنافسوا فيما بينهم، ذلك لكي يتقدم العالم.

وهنا أتذكر مقولة لفريدريكو مايور والذي كان رئيسًا لليونسكو وكان قبل ذلك يشغل منصب وزير التعليم في إسبانيا، وقد قال: "إنه لا سبيل للبقاء إذا عاش الناس على غمس فتات خبزهم في أطباق الآخرين بما تحتويه من معونات وصدقات دولية نهايتها شلل القدرة والاستعباد المعرفي". فلا يمكن أن تعيش بلد على معونات لأن المعونات لا تبني دولة، وهنا أضيف أنه من المعروف عبر التاريخ أنه ما من أمة بقيت ونمت إلا بالقدرة الذاتية المختزنة عند الذين ينتهجون سبل المعرفة العلمية المزينة بالسلوك الحميد متمثلا في الأسلوب العلمي الأخلاقي Ethical Scientific Methods ذلك هو السبيل الوحيد المؤدي إلى التقدم الاجتماعي والاقتصادي. لكن، ذلك لن يتم إلا بالعمل على نشر المعارف والتدريب الحرفي بين المواطنين في إطار من السلوك الحميد لإحراز التقدم الجمعيCollective Excellence ، ذلك يعني أنه إذا استمر اتساع الفجوة مع وجود مساحة كبيرة بين من يعرف ومن لا يعرف فإن ذلك لابد أن ينتهي إلى توقف تقدم العالم.

إذا كانت التنمية البشرية قضية تعتبر حقًّا من حقوق الإنسان، حقًّا ملزمًا ومعلومًا للفرد وللمجموع، فإنها منبع القدرة التي ينطلق منها المجتمع وأهم وسيلة لإحداث التقدم الجمعي والتنمية

الشاملة. وخاصة هي حق للفرد القادر بالموهبة والتميز في الحصول على أرقى فرص للقيام بدوره الواجب نحو رفعة المجتمع، وهي أيضا حق للمجموع للقيام بواجبه للاستفادة من رصيده في مورده الإنساني وثروته الوطنية، بتوفير القدرات والوسائل البيئية المحابية التي تؤهل لتكوين جيل يصلح للقيام بالواجب المجتمعي المطلوب. وأراني أتصور أن الموضوعين المطروحين اليوم وهما التفكير العلمي والتنمية البشرية يرتبطان ارتباطـــًا وثيقـــًا وعضويـــًّا إذ أن التنمية البشرية هي القدرة المؤهلة في كل مجالات الحياة لإحداث التقدم، فإذا كُلِّـــلَت بكفاءة التفكير العلمي أنتجت أرقى وأسرع سبيل في إحداث التغيير وحل المشاكل التي تعتري سبل التقدم، مثلها في ذلك كمثل فاعلية العامل المساعد في تنشيط التفاعل الكيميائي لإنتاج مادة مطلوب تكوينها أو في أهمية إتقان اللغة في فهم كوامن الدين. والسبيل الذي سوف أحتذيه في هذه العجالة هو التركيز على ظواهر وتحديات العصور المختلفة والفجوة ثم عن روافد التنمية البشرية وكفاءة الإنسان المؤهلة بالتفكير العلمي. أولها التكوين المعرفي للفرد الناتج عن تنشئة أجيال صالحة متحررة فكريا ومتميزة في قدرتها الذهنية تنمو منتمية إلى وطن وسلوك قويم، محصِّلة لأسرة ومِرفق تعليمي راقٍ ومجتمع واعٍ وقادر على الحفاظ عليها. ثانيا التأكيد على قيمة التفكير العلمي والتدريب عليه في كافة مراحل الحياة بداية من الطفولة في البيت والمدرسة. ثالثا رعاية الموهبة والتفوق أغلى رصيد وقيمة مطلوبة إحداثًا للتنمية البشرية.

لقد تأكد اليوم أن الغزو المعرفي قد أصبح أقوى سلاح لإخضاع الشعوب وحتى العقائد، من هنا كانت التنمية البشرية مرادفة تطبيقية للتفكير والأسلوب العلمي، سبيلاً وحيدًا للتقدم والحفاظ على الثوابت المجتمعية. لقد تحدث العلماء والمخططون كثيرا عن الدور التربوي في إحداث التنمية البشرية وسوف نشير إلى ذلك فيما بعد، ولكن سوف أحاول أن أضيف بعدًا جديدا فوق الدور الاجتماعي في التعليم والتنمية البشرية وهو الدور الاقتصادي الحاكم ذلك الذي إن لم يواكب التخطيط الاجتماعي فإن التوازن التنموي قد يختل وتنشأ عنه سلبيات مجتمعية تواجه الفرد والمجموع مما قد ينتهي إلى مشكلات أكبر مثل البطالة واليأس والهجرة إلى المخدرات أو الانتحار والتطرف.

من هنا نرى أن التنمية البشرية عملية مستمرة تتأثر بأحوال اجتماعية واقتصادية والتي تؤثر بدورها في تكوين الفرد ونموه السليم، وخاصة بتأثير البيئة المحيطة، وما يؤثر فيها ويتفاعل معها. ذلك يجعل الفرد كمًّا مضافـــًا وليس عبئًا مضنيـــًا للأسرة والمجتمع، ونحن ننظر اليوم للفرد على أنه وحدة اقتصادية منتجة. ودائما ما أضرب المثل باليابان التي تبلغ مساحتها ثلث مساحة مصر، وثلث مساحة اليابان جبلية لا تُسكن، إذن فالمتبقي للسكان أقل من ثلث مساحة مصر، وليس عند اليابان مصادر لثروة إلا العقل وقدرة الإنسان، وكذلك يبلغ تعداد سكان اليابان ١٣٠ مليون نسمة تعيش على تلك المساحة، وفي نفس الوقت لديهم ١٠ ملايين روبوت يعمل كل روبوت بقدرة ثلاثة أشخاص ويعملون ثلاثة ورديات في اليوم الواحد أي ثلاثين مليون شخص، أي أن عددهم الإجمالي ١٦٠ مليون نسمة، ومع ذلك لم يشتكوا أبدا من كثرة عدد السكان، وقد زرت اليابان عدة مرات حيث وجدت أن نسبة البطالة

عندهم أقل من ١.٥% وهي نسبة الإجازات المرضية والعرضية العادية التي يحصل عليها العامل في الدولة. إن هذا له معنى واحد: أن البشر قيمة إذا أُحسن استغلالها واستعمالها وتوجيهها وتكوينها. والبداية تحتاج إلى وقفة خاصة للتنشئة في البيت والمجتمع والدورة التي يمر بها، والجدول التالي يوضح سرد تاريخي عن مسار البشرية يوضحه الجدول الآتي:

المرحلة	منذ فجر التاريخ	منذ ١٦٠٠ وما قبلها	منذ ١٧٣٠	منذ١٨٧٠	منذ ١٩٧٥ حتى اليوم
العوامل والسمات	مجتمع زراعي قديم	مجتمع تصنيع زراعي بدائي	مجتمع صناعي بداية ثورة البخار	مجتمع غزير الإنتاج ثورة الكهرباء زيادة الاستهلاك	مجتمع معلومات ثورة الإلكترونات الثورة البيولوجية
النظرة الزمانية	تقاليد وخرافات	تطور احتياجات تدفع التغيير	استقرار وأمل للتقدم	استهلاك ونظرة للمستقبل	رسم وتخطيط وتحقيق المستقبل
توزيع العمالة	٩٠% زراعة ١٠% خدمات	٣٠% زراعة ١٠% صناعة ٦٠% خدمات	١٠% زراعة ٣٠% صناعة ٦٠% خدمات	٣٠% علماء ٥٠% فني صناعة ٢٠% خدمات	علماء متطورون ٥٠% عمالة فائقة المهارة ٣٠% خدمات ٢٠%
عناصر الإنتاج	محاصيل + مواد خام	طاقة + مواد خام	طاقة +معرفة	طاقة غزيرة + مواد ملوثة	معرفة + تكنولوجيا + طاقة أقل
التكنولوجيا السائدة	يدوي + حيواني	يدوي + ميكنة + طاقة مائية	أوتوماتيكية + كهروميكانيكية	أوتوماتية + ابتكار يتزايد	ثقافة +معرفة معلوماتية أوتومية
التعليم والتدريب	بدائي	أساسي وفني	جامعي بوليتكنيك	جامعي متقدم	تفوق تعليمي إلكتروني
استخدام الطاقة (كيلووات/فرد)	٢٠٠ أساسها عضلي	٢٥٠-٨٠٠	٨٠٠-٣٠٠٠	٥٠٠٠-١٠٠٠٠	٢٠٠٠٠
نصيب الفرد من الناتج القومي (دولار/سنة)	٢٠٠-٤٠٠	٢٠٠٠	٦٠٠٠	١٠٠٠٠	٢٠٠٠٠

والجدول السابق يوضح أن كمية الطاقة العضلية التي يستهلكها الإنسان آخذة في التناقص حتى بلغت حوالي ٤-٥% من إجمالي المجهود الذي يبذله الإنسان والذي انتهى إلى الضغط على أزرار كمبيوتر أو الكتابة بطباشير على سبورة أو تحريك ميكروسكوب في معمل، أما الطاقة الأساسية التي يستخدمها الإنسان الآن فهي طاقة العقل، تلك القدرة الكامنة التي تحرك الأرض (كما قال أرسطو).

وتحديات العصر الذي نعيشه تتمثل في عدد من الجوانب ومنها ما يلي:

١- انفجار سكاني وخاصة في العالم النامي، حيث سوف يزداد تعداد العالم حتى عام ٢٠٥٠ حوالي ٢.٥ مليار نسمة، منهم ٩٦% في العالم النامي و٤% في العالم المتقدم، والسؤال هو كيف يتأتى للعالم النامي أن يظل ينجب من لا يستطيع إطعامهم والإفادة من قدرتهم.

٢- تطور ديمغرافي غير محسوب، إذ الزيادة في صغار السن في العالم النامي وفي متقدمي السن في العالم المتقدم.

٣- انفجار معرفي تكنولوجي ينتهي إلى تطور في الإنتاج الصناعي والزراعي بسرعة غير مسبوقة مؤثرا في التنمية المستدامة والبداية تتأكد اليوم في حاكمية المعلومات وتأثير التعليم والإعلام في كافة المستويات وتأثير كل ذلك في مستقبل البشرية. إن التغير في أنماط الحياة بتأثير المتغيرات الحادثة بداية في انحسار دور الأسرة رغم أهميتها في التأثير بالمشاركة. كذلك فإن الاختلاط الواضح بين الإعلان والإعلام قد أحدث مشكلة بسب اختلاطهما، إذ أنه من المفروض أن يكون الإعلام صادقا بنسبة ١٠٠% أما الإعلان فهو يركز على محاولة لتسويق السلع وإخفاء المثالب، وذلك حتى يشتري الناس السلعة المعروضة. كذلك، فإن اختلاط الحضارات والثقافات والعقائد قد تسبب شحوب الهوية القومية والتي تعتبر الدافع الأول للمواطنة السليمة، وما يمكن أن يُقال عن ظهور القرية العالمية أو العولمة بسبب سرعة المواصلات وسهولة الاتصالات وتنامي التجارة العالمية وانتقال الأفراد والسياحة العالمية، فهناك ثلاثة مليارات طن سلع تنتقل يوميا بين الدول المختلفة، بخلاف مليوني شخص ينتقلون سنويا مستخدمين الطائرات وحدها. كذلك فإن ظهور التكتلات والتجمعات الاقتصادية والسياسية وتنامي الشركات العملاقة عابرة القارات وتأثيرها في مستقبل البشرية بتأثيرها السياسي والتي تأكدت بظهور اتفاقية الجات ومنظمة التجارة العالمية توابعها من التشريعات قد أثرت في التاريخ البشري انتهاء بحرية التجارة وانتقال رؤوس الأموال والسلع والأفراد والإدارة. وما يعتري كل ذلك من ظواهر الاستعمار الاقتصادي والغزو بقوة العلم والمعرفة والتكنولوجيا، وقد أدى إلى نظام عالمي جديد أحادي القطبية (بعد انهيار الكتلة الشرقية) لم تتضح ملامحه كاملاً بعد، لكنه يتسم بالقسوة والتعصب النوعي للقوة والمعرفة والغنى وهو أبعد ما يكون عن العدالة والشرعية الدولية، ويكرس البقاء فقط للأقدر علمًا وقدرة والأقوى اقتصادًا.

كل هذه العوامل تؤدي إلى حدوث فجوة تزداد اتساعًا بين القادر وغير القادر والذي انتهى بالوصول إلى ما سُمي عهد الاعتداء الوقائي وهو بدعة جديدة لفرض الاستعمار الحديث، والتي تتضح ملامحها من الجدول التالي:

التطورات العالمية الحاكمة للفجوة

ظواهر العالم المتقدم	مشاكل العالم النامي
أسباب مرتبطة بالإنسان:	
١- تعليم مجوَّد وانفجار معرفي غير مسبوق.	١- تباطؤ في تطوير التعليم وناتجه العلمي والحرفي.
٢- تطور تكنولوجي متزايد السرعة.	٢- بطء في استيعاب قيمة التطور.
٣- اقتحام عصر المعلومات وثورتها.	٣- التوقف عند الثورة الصناعية أو ما قبلها عند بداية النهضة المعلوماتية.
٤- سلوكيات الثورة الصناعية المتطورة.	٤- صعوبة التكيف مع تغير السلوكيات: (التمسك بثقافة التخلف – الزحام) مع التواكل سمة المجتمع الزراعي.
٥- قضايا الصراع الحضاري ونبذ العنصرية.	٥- العيش في أمل وحدة مصير الإنسان (أمل أم سراب).
٦- الدعوة لحقوق الإنسان والمرأة والطفل وتطبيقاتها.	٦- محاولة الحصول على حق الحرية والعمل للمرأة وحماية الطفل.
٧- حاكمية الإعلام تعليمًا واستهلاكًا.	٧- ضعف الإرشاد الإعلامي والتغالي في الترفيه والدعوة للاستهلاك.
٨- الحق في التنمية والديمقراطية والأمل.	٨- الغرق في بحور الأمية والفقر الجماعي ونسيان الحقوق والفروق المجتمعية والاكتئاب المجتمعي.
أسباب مرتبطة بالتغيرات العلمية:	
١- تغيرات سكانية وتوقف الزيادة، وفي الدول المتقدمة يوجد نقص في الأيدي العاملة ومنها ألمانيا وفرنسا، حيث قلت نسبة الشباب وأصبحت لا تتعدى ٢٥% في حين ارتفعت نسبة كبار السن، وأصبح مطلوبا لدفع معاش لهؤلاء أن يعمل خمسة أفراد لتتمكن الدولة من دفع المعاش لمسن واحد.	١- انفجار سكاني متزايد مع تدهور صحي.
٢- تغير النمط السكاني وزيادة نسبة المسنين وتكلفة التأمين عليهم (٢٥%).	٢- تغير النمط بزيادة الصغار غير المنتجين (حوالي ٦٠%).
٣- مجتمع الوفرة وما له وما عليه: (حوادث – أمراض نفسية – إدمان).	٣- مجتمع الفقر وانحرافاته: (نقص التغذية – قلق – تعايش الجوع والجشع).
٤- تحقيق النظام العالمي الجديد والعولمة.	٤- الرهبة في الانفتاح على العالم، الانغلاق مع التخلف.
٥- التكتلات العملاقة العالمية.	٥- الانفرادية وصعوبة تخطي الحدود: (جغرافية أو اقتصادية).
٦- منظمة التجارة العالمية وتشريعاتها.	٦- عدم القدرة على التكيف لمواجهة التطور العالمي.
٧- اختلاط الحضارات واللغات.	٧- الانكماش والانغلاق لدعوى الحفاظ على الهوية.
٨- تقارب الأديان والأعراق.	٨- التعصب العرقي والقبلي.

وحول التفكير العلمي والتنمية البشرية والقدرة على إحداث التغير نجد في كتاب لتيودور شولز والذي صدر في أوائل القرن العشرين عنوانه "استثمار الإنسان" (ترجمته للعربية الدكتورة سميرة بحر) والذي قال فيه: "إن أنجح استثمار وأعلى عائد يُنتظر لا يتأتى إلا من الاستثمار في البشر، وإن أغلى مرحلة تُغل أغلى ربح مجتمعي تتأتى من رعاية سن الطفولة ومرحلة الشباب ذلك لأن العقل من الأعضاء التي تنمو مبكرا في مراحل الحمل لذلك فإن التنمية البشرية بدايتها تقبع في رحم الأم، ثم بعد ذلك يتفاعل الطفل بمؤثرات بيئية مختلفة في الأسرة والمدرسة والجامعة حتى يتحول إلى الإنسان القادر على العطاء، حقا يجتبيه المجتمع رصيدا للمستقبل".

نكتفي بدور الأسرة والمدرسة في هذه العجالة لكن لا ننسى دور الإعلام ودور العبادة والبيئة الاجتماعية المحيطة وغيرها من مؤثرات.

دور الأسرة:

نبدأ بمرحلة الطفولة إذ إن الطفل ثمرة ونتاج الأسرة، تلك البوتقة الطبيعية للتنشئة والعلاقة بينهما من حقائق الوجود، للاستخلاف في الأرض، تلك شريعة الخالق عز وجل، إذ إن أول شراكة اجتماعية يمارسها الإنسان في حياته ويعتز بها وتؤثر فيه هي الأسرة.

يمر الإنسان بثلاث مراحل في تكوينه:

أولا: مرحلة التكوين داخل الرحم وهي أخطرها لأنها تقتضي العناية بالأم مصدر الحياة رعاية صحية غذائية عضوية ونفسية وتستمر حتى الوضع.

ثانيا: مرحلة الرضاعة تتأكد فيها القدرة الربانية في الرضاعة والحضانة الحانية فيها تستمر رعاية الأم الصحية والنفسية.

ثالثا: مرحلة الطفولة والصبينة والشباب، عندما تبدأ الحركة والفهم، وتتكون فيها شخصية الطفل وتنمو أحاسيسه وعواطفه وذكاؤه حتى سن الثامنة (من ٣ – ٨ سنوات) عندها ينتمي إلى الأسرة وتنطلق قدراته التي يمكن التحكم في تكوينها، وفيها تكتشف المواهب ويمكن صقلها، كذلك قد تعتريها المشاكل التي قد تعيق النمو وتحجب القدرات والملكات والمواهب الكامنة. وقد حسب أساتذة العلوم النفسية والتكوينية أن الطفل الذي يدلل في الفترة المبكرة (الدلع) من حياته تكون قدرته الذهنية والعقلية أعلى من الطفل الذي يُكبت ويُحطَّم على صخرة التربية الحازمة.

إن المسئولية الأسرية تتحدد في أمور ثلاثة:

١) تتعلق بالتربية العضوية والعقلية والنفسية السليمة.
٢) زرع روح الترابط والانتماء للأسرة والجماعة والوطن.

٣) قبول الرقابة والإرشاد والتوجيه الحميد والذي يعتبر بداية الانضباط وكبح النفس من الشطط.

دور التعلم:

تلعب المؤسسة التعليمية والتربوية دورًا مهمًّا في التنشئة حيث يفترض أن المؤسسة التعليمية لابد أن تتكامل وتتفاعل مع الأسرة وتشاركها في تكوين شخصية الوافد إليها، لأنه من الأهمية خلق علاقة مشتركة. إنه من المعروف أن الأسرة تركز على وضع لبنات أساسية منها اللغة والتعبير والتعاون والمحبة وقبول المراجعة، إلا أن مرافق التعليم تتولى في مستوياتها المتصاعدة التي تعتبر صناعة وطنية لأغلى سلعة وأعلى مصدر للوطن فإنها تعمل في عدة توجهات منها:

١) التنشئة المعرفية من خلال استيعاب المعارف والاختيار بينها والذي يعني اتباع التفكير العلمي وهو الموضوع المطلوب ونحتاج التركيز عليه.

٢) كذلك التنشئة القيمية والتي تساعد على تنمية الإحساس بين الواجب والمحظور والاختيار بينها مع القدرة على الحكم على الأشياء في سلوك حميد.

٣) بالإضافة إلى التنشئة المهارية والتي تتناول ببرامج متزايدة الفاعلية تربط بين الفكر والتطبيق والنظرية والحرفية والحركية، كذلك شحذ مهارة التخاطب والحوار ومهارات القيادة والإدارة.

٤) ذلك بالإضافة إلى تهيئة الطالب في المدرسة والجامعة للتفاعل مع البيئة المحيطة والاستفادة من القراءات الحرة في العلوم المختلفة واستنباط الخبايا المكنونة فيها باستعمال العقل هبة الله.

والمحصلة النهائية لمؤسسة التعليم في العصر الحديث تتمثل في تكوين فرد يؤثر بقدراته المكتسبة في المجتمع المحيط، شعلة معرفية مضيئة لكل من يفتقدها من المواطنين، ينهل منها ويسير في نورها، لكن كل ذلك يتوقف على القدرة على استيعاب المعارف واستغلال عوائدها لتطوير أساليب الحياة وزيادة دخل الفرد والمجموع، والذي لن يتأتى إلا عن طريق استغلال العقل بالتفكير العلمي للاستنارة والوصول إلى الحقائق.

السلبيات المتطورة:

من المثالب والسلبيات التي أثرت في أوضاع التعليم في العالم النامي نجد عدم توافق الأعداد مع القدرات والإمكانات التدريسية المتاحة، والذي دفع بالكثير من الاعتماد على التوجه والاعتماد على التدريس غير الشرعي (الدروس الخصوصية)، وتوقف دور المدرس إلى ملقن معرفي أو موصل محكوم بمواد وأساليب جامدة لا رأي له فيها. وكذلك، ضعف تكوين المدرس وغياب رقابة الجودة والتطوير في كليات التربية، وتخلف الإدارة التعليمية والهندسة الحاكمة لنظام المدرسة والأنشطة حتى أصبحت طاردة، وأذكر هنا أن جورج بوش الأب حينما رشح نفسه أمام كلينتون أصدر كتابًا وأقام مؤتمرًا، وقد رأيت فيلمًا عن هذا المؤتمر الذي قام فيها بجمع قيادات التعليم المختلفة قبل الجامعي والجامعي وحضرته مجموعة طلاب من الجامعة وحتى من الروضة والابتدائي، وقد طلب من المتخصصين في التصميم الهندسي التربوي كيفية

تصميم مدرسة تجتذب قلب الطفل ليلتحم بها ويتمتع بالجلوس فيها وبممارسة حياته، حتى أنه قيل أن قدرة المدرس والطالب تتأثر بل تتوقف على شكل المدرسة وشكل الفصل وإمكانياته، وذلك لأن احترام المكان يعطي المدرس الحق في تعليم جيد للطالب، لكن إذا كان الفصل منتهكا وغير جاذب كما هو في العالم النامي فإن المدرس لن يستطيع أن يقوم بدوره. وذلك إلى جانب تدهور المناخ النفسي والمادي الذي يعمل فيه المدرس وغياب القدرة على ممارسة الإبداع التربوي الحر والظروف المادية المحيطة، كذلك مركزية القرار التربوي وعدم مشاركة المدرسين في وضع السياسة وغياب حرية المدرسين في إحداث التطوير.

كما أن هناك مثالب اجتماعية تتعلق بتأثير المناخ السائد في المجتمع من تأثير تفاقم البطالة بين المتعلمين والذي يهز الثقة في التعليم وجدواه، وكذلك خطورة تدهور أسلوب التعليم بالتلقين والإذعان المعرفي والذي يكرس الفرد لقبول أي فكر مستغرب على المجتمع مثل الإرهاب والتطرف، كما أن النظام التعليمي يعيد إنتاج واجترار التخلف الاجتماعي والعلاقات المريبة مما يعوق التنمية، وكذلك فإن التعليم والتفكير المغلق يضع حاجزًا لتفهم الواقع الاجتماعي ويزيف الوعي. هذا مع العلم أن التغيير في الأيديولوجيات الحاكمة قد أثر بل أربك استقرار الفكر للطلاب وتركيز وسائل الإعلام لزرع الشك في الواقع، كل ذلك والذي يدعم الصراع الطبقي بين الأجيال المقنعة بأفكار متباينة. وما حدث أيضا من تفاعلات العولمة والتي هزت الثوابت القائمة منذ مئات السنين ودعوتها إلى شحوب الهوية والانتماء والتمسك بالأرض والأسرة مما أحدث هزة في الحقائق والعقائد الراسخة في المجتمع، وإن الاختلال في أنماط التعامل بين الناس في العلم النامي من تأثير ذوي القربى والواسطة والرشوة، أحدث تعميقا والأمالية في الوطن. وكانت ظواهر اجتماعية تضيف إلى تعزيز التناقضات الاجتماعية مثل انتشار المدارس الخاصة والجامعات الأجنبية والذي يساعد في خلق الكثير من القلق والصراع الطبقي، وأبرز ظاهرة مستحدثة سميت الاستعمار الطبقي الداخلي، هنا لابد من التـــأكيد على أن الكفاءة لا ترتبط بالطبقة التي ينتمي إليها الإنسان، ونحن نرى أن المتفوقين في الثانوية العامة قد يظهرون من قرى بسيطة، وعندما يتميز المدرس ولو في قرية بسيطة ويكون الطالب القادر على التميز فستكون النتيجة ممتازة، والتفوق ليس حكرًا على خريجي الجامعة الخاصة أو غيرها.

قضية التفكير العلمي:

قضية التفكير العلمي (أو الـــ Scientific Thinking) ترتبط جذريًّا بالعلم والمعرفة (أو Science & Knowledge) حيث إنهما السبيل لفحص حقائق الأشياء وما وراءها وهو بداية الطريق للحصول على المعارف. ويعتبر الأسلوب العلمي أو الـــ Scientific Methods هو الطريق السليم لاستيعاب المعارف العلمية وتأكيد صدقها. كما أن التفكير العلمي أو الـــ Scientific Thinking هو الأسلوب المحتذى للممارسة المعرفية لاستيعاب حقائق الطبيعة والإجابة عن الاستفسارات التي تفحص طبيعة

الأشياء، كل ذلك يستدعي السؤال والفحص (أو الـــ Search) والتساؤل (أو الـــ Inquisitiveness) والمساءلة والتقييم (أو الـــEvaluation).

كذلك، فإن أرقى مستوى يصل إليه المفكر العلمي هو مهارة طالب العلم في الوصول إلى الاستنتاجات المؤكدة وهو مستوى التفكير المدقق أو Critical Thinking. ومن الحقائق المعروفة اليوم أن الفرد، طفلا كان أو شابا يمكنه أن يتدرب على ممارسة التفكير العلمي بنفسه أو بتوجيه مؤسسي خارجي في خطوات محددة بالأسلوب العلمي لتقبل كل ما يواجهه من حقائق بتمعن وتفهم واستيعاب، وهناك تدريبات عملية تنمي وتشحذ التفكير العلمي المبرمج.

القدرة الفكرية:

الموهبة (Talent) والعبقرية:

اليوم تُعتبر قضية التفكير العلمي مدخلا لتنمية القدرة الفكرية والكفاءة الابتكارية المطلوبة لتحقيق التنمية البشرية السليمة. هذه الكفاءة تتحدد في مصدرين أساسيين يتعلقان بالموهبة وهي هبة ربانية قد تكون موروثة عبر أجيال متتالية أو قد تحدث كطفرة خِلقية في نسبة من المواطنين (١ – ٢%)، ومنها تنبع العبقرية وملكة الابتكار التي تميز صاحبها بالقدرة الفائقة على تغيير أو تحريك الواقع المعرفي، بالإضافة إليه لتحويله إلى ما يضيف للعوائد بأسلوب غير مسبوق.

وتلك الفئة من أصحاب الموهبة يمكن رصدها في المجتمع لتميزها بشخصية تختلف عن أقرانها في التفكير والتعبير والقدرة على التصور والإضافة والتغيير إذا أحسن رعايتها انطلقت وأبدعت وأضافت. لكن في بعض الأحوال هذه الفئة قد ينظر إليها على أنها غريبة عن الواقع فتُكبت وتختفي في غياهب الفقر والمرض والزحام، وقد تضيع بسبب التركيز على فلسفة التوحيد القياسي للبشر، لكن إذا بُحث عنها وأبعدت عما يعوق كشفها وانطلاقها ورعايتها تتفجر كوامنها وتتأكد قدرتها التي إذا انطلقت عندها تتأكد طبيعة قدرتها للتطوير والابتكار والاختراع بما يضيف إلى المنفعة العامة. وأذكر أنه عندما كنت رئيسا لأكاديمية البحث العلمي، كانت تدعوني الأكاديمية البابوية في الفاتيكان لحضور مؤتمرات لديها، وكنت أرى في أثناء الجلسات رجلا يحمله أربع ممرضات اسمه ستيف هوكنـــز Steve Hokins وهو صاحب الجسد المشلول من قدمه إلى أحباله الصوتية التي بقيت تتحرك، لكن وضع له العلم الحديث مجسات على الأحبال الصوتية متصلة ببرنامج كمبيوتر تحول همهماته غير المفهومة إلى كلمات جعلته يؤهل ليكون أستاذًا في كمبريدج وهو المكتشف لمعظم النظريات الخاصة في تخصصه: الرياضة البحتة والطبيعة النظرية في العالم اليوم، إذن، من هنا فالعلم يؤمن اليوم بأنه ما من إنسان يخلو من المواهب وحتى المشلول الكامل فقد اكتشفت موهبته وإمكانياته وتدفق نبوغه بالوسائل المستحدثة.

إن اكتشاف المواهب الابتكارية ومسبباتها قضية تعتبر من المشكلات التربوية الصعبة التي تحتاج إلى دراسات عميقة وتستنـــزف وقتـــًا طويلاً لتحديد المقاييس والمعايير المطلوبة لاكتشاف الصفات البارزة

في الشخصية الموهوبة، ذلك بسبب صعوبة اقتحام تلك الشخصية في السن المبكرة والتي كثيرا ما تتسم برهافة الحس وسمو الفكر وتوقده مع القدرة على الملاحظة والتعجب، وكثيرا يمكن أن تكتشف الأم هذه القدرات الكامنة قبل الالتحاق بالمدرسة وتتزايد في مراحل نموه. فإذا أُحسنت رعايتها وتأهيلها تتحول إلى قدرة وكم مضاف للأسرة والوطن، تتعالى قدرته لتكوِّن خميرة جاهزة للتكوين العبقري القادر على الإبداع العلمي إذا استمر نموه في بيئة محابية للانطلاق واتساع الأفق ليصل إلى المستويات المتفوقة محليـــاً أو عالميـــاً.

لذلك، فإنه بالرعاية الخاصة في البيت ومراحل التعليم المختلفة، تنطلق المواهب ويتوهج الوعي الابتكاري بالممارسة المرشَّدة المتدرجة أو بدفعه لممارسة التفكير العلمي التفاعلي، والذي يساعد على أن يبرز النبوغ ويفصح عن قدراته المكنونة، وعلى سبيل المثال إذا مارس الفرد قدرته في حرية التعبير اللغوي فإنه سوف ينبغ في الكتابة، وإذا تفوق في الإبداع الحركي فإنه سوف يبرز في الرسم والتشكيل وغير ذلك.

التفوق (Excellence):

وتتحدد الكفاءة أيضا بالتميز أو التفوق والذي يعتبر هو المصدر الثاني الذي يمكن تشكيله وتنميته، لأنه يتمثل في الطالب المجد الذي يتميز في كفاءة الفهم والاستيعاب والقدرة على التفكير والاستنتاج وإتقان التحليل. تلك القدرة المتميزة إذا أُحسن استغلالها وتقييم درجة ذكائها (لا تقل عن ١٢٠)، وأُدرجت في برامج الرعاية والتشجيع والإرشاد التربوي والتدريب المبرمج فإنها ستفرز شخصية منتظمة الأداء، مثابرة على الاستزادة في ربط المعارف خاصة إذا شُجِّع على الاستـــزادة في الاطلاع وتعدد القراءات والثقافات، تلك سلعة قومية غالية وموالاتها ورعايتها ممكنة ونتائجها مضمونة.

يُكتشف التفوق عادة بسهولة في الفصل بمراقبة سلوك الطالب المجد والمتميز بالتركيز والتحدي وحب التجربة، ويمكن للمدرس الواعي أن يكتشف ذلك ويحدد قدرة الطلاب لأن هذه الفئة كثيرا ما يلاحظها المدرس في الفصل، وحيث يوجد طالب منضبط يركز على مسئولياته ولديه قدرة على المثابرة ويقبل التحدي والتنافس ومتمسك بكفاءته ولا يتنازل في قدرته على التجويد، ولذلك فإن المدرس يجب أن ينمي قدرات ذلك الطالب ويحابيه ويرشده للاستزادة من المعارف ويحفزه ولا يثبطه، وفي حالة إن لم تكن قدرته تصل إلى درجة الابتكار والتطوير، يقوم المدرس بدفعه إلى التعمق بالفكر ولا يبخسه حقه. وتوجد برامج متعددة تشحذ التفكير العلمي ومنها البرنامج العلمي التفاعلي المتدرج للأطفال في خطوات تتعلق بالملاحظة والمقارنة والتجميع والترتيب والتوقع والاستنتاج والتجربة والتدريب والتقييم والتطبيق، والذي يعتمد على توليفة متدرجة في سبع خطوات محددة للتدريب على التفكير العلمي، ويركز البرنامج على:

١) التوجيه بالنظر فقط على الأشياء (ولتكن مكعبات أو لعبًا أو نباتات) من زوايا مختلفة واستخدام كافة الحواس.
٢) ثم إجراء مقارنة لملاحظة الاختلافات والفروق بين الأشياء.

٣) يليها التجميع والترتيب والذي يبدأ في بتجميع الأشياء بأسلوب محدد ثم ترتيبها حسب تكوينها والتي يظهر خلالها الاختلاف بين الأشياء بعضها البعض.

٤) تأتي بعدها عملية التوقع والاستنتاج والتي يبدأ فيها التساؤل والاستنتاج بعد إتقان الخطوات السابقة.

٥) تتبعها مرحلة التجربة والتدريب حيث يبدأ الفرد في اختيار الأشياء وتجريب بعض الأفكار عليها حيث توضع أمامه مواد وأشياء مختلفة يمارس التدريب على الاختيار منها بإتقان، وحتى يمكن إجراء المقارنة والتقييم والتي يمارس فيها الفرد التدريب على تقييم الخصائص المحددة للأشياء المختلفة.

٦) يبدأ في التعبير عما اكتسبه من خبرة ورؤية لمن حوله.

٧) في النهاية تأتي مرحلة التطبيق حيث يتوجه الفرد لتطبيق الخطوات التي اتبعها بالمفاهيم التي اكتسبها ومحاولات تطبيقها مرات متتالية على مجالات مختلفة متصاعدة، وبهذه الطريقة يكون الفرد قد تعود على التفكير العلمي والتركيب الذي يصل إلى الإبداع، وهو أحد الطرق لتشجيع ممارسة التفكير العلمي.

إن الفرد المتفوق لو اتسم بالموهبة فإن قدراته ترقى إلى مستوى يفوق المتفرد إما بالموهبة أو بالتفوق وهذه مسئولية مشتركة مضاعفة بين الأسرة والمدرسة. إن الاكتشاف للخصائص الإيجابية في الطفل أو الوافد للمدرسة تقتضي الرعاية والدعم آخذين في الاعتبار أنه في معظم الحالات أن أي فرد قادر على إحراز سمة التميز والتفوق بالاجتهاد الشخصي يحتاج إلى الرعاية المرشَّدة في المدرسة وقدرة المدرس التربوية. وهذه المسئولية التربوية المشتركة بين الأسرة والمدرسة مسئولية اجتماعية في اكتشاف الموهوبين والمتميزين الذين إذا اعتادوا تطبيق منظومة التفكير العلمي فإنهم يمثلون حقًا للمجتمع رصيدًا كامنـــًا لمستقبل الأمة والقدرة على إحداث التغيير والتنمية.

وبالنظر إلى المواثيق الراعية للطفل، فإنها تؤكد على حقوق الطفل، ففي الشريعة الإسلامية، تراعى حقوق الأطفال والأقليات والجاليات غير المسلمة وخاصة في المجتمعات الإسلامية، بما يتوافق مع الشرائع الأخرى، حيث إن الإسلام بقيمه ومبادئه يشكل أنماطا للسلوك المجتمعي التي تحقق للمجتمع التقدم والازدهار في كنف الأسرة والتي تعتبر اللبنة الأولى في بناء المجتمع، إن الطفولة وفقًا لتعريف اليونسكو تعني كل إنسان لم يبلغ سن الرشد وفقًا للقانون. إن أولى خطوات العمل الجاد تبدأ بالاستبصار الواعي لأهم التحديات المتراكمة والمتوقعة التي تواجه الأمة ومنها التحولات السلبية الاقتصادية والاجتماعية وآثارها على الدول النامية. ومما يذكر هنا كذلك تراجع دور الأسرة وتفكك روابطها، ونلاحظ في مصر أن هناك ما بين ثلاثة إلى أربعة ملايين مصري يعملون في الخارج، صحيح أنهم يرسلون أموالا تدخل مصر إلا أن كلاً منهم يترك وراءه أسرة وأطفال بدون راع، ويعوضهم عن ذلك برفاهة العيش دون رقابة، وهذه قضية أخرجت جيلا فقد الرعاية وحنان الأبوين، في بعض الحالات فإذا كان هؤلاء الآلاف يزيدون الخزانة المصرية بمقدار ٢ إلى ٣ مليار دولار سنويـــًا ولكنهم يتركون الآلاف من الأطفال المعاقين سلوكيا وخلقيا وماديا نتيجة للأموال الزائدة والتي تجعل منهم

صيدا سهلا لتجار المخدرات. بالإضافة إلى تراجع في دور القيم والمفاهيم وشحوب الهوية ووجود سلبيات موروثة مع قصور في الخدمات الصحية والتعليمية والإصلاحية، كل ذلك إضافة إلى تراكم الآثار السلبية الناجمة عن عدم ملاحقة التطور السريع في العلوم وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات.

وعلميًّا حالة الطفل في هذا العصر وما يتحمله ككيان هش في المجتمع مهمة حيث يعاني من بعض المظاهر الأخرى مثل المعاناة من الكوارث الطبيعية، وتلك التي من صنع الإنسان، وكذلك مظاهر اليتم مع الفقر المنتهي إلى التشرد من الحروب الداخلية، واستغلال الأطفال في أعمال خطرة أو عسكرية، ومعاناة الأطفال اللاجئين والنازحين تحت ظروف الاحتلال، وتعتبر مأساة دارفور من أكبر المشكلات. من الملاحظ اليوم أن كل هذا يحدث في وقت يتم فيه في العالم الغني إلقاء القمح والسكر وغيرهما في المحيط حينما ينخفض سعرهما في حين لا يجد أطفال دارفور جرعة مياه نظيفة. كما أن هناك عددًا من المشردين والمفقودين نتيجة المجاعات والنـــزاعات العسكرية وما ينتج عن ذلك من ازدياد ظواهر العنف والإعاقة بدنيـــًا وذهنيـــًا واجتماعيـــًا.

ولذلك كله نجد من الضروري الالتـــزام بحقوق الطفل، مع العمل على تفعيل الحقوق وتذليل العقبات وتخفيف الآلام ذلك بترسيخ القيم الدينية والاجتماعية السامية مع التركيز على قيم الأسرة وتحقيق دعائمها القائمة على المودة والرحمة والتعاطف والمحبة.

ويمكن تحقيق ذلك من خلال رعاية الأسرة مجتمعيًّا وعقائديًّا والحيلولة دون تدني أوضاعها المادية والاجتماعية والصحية مع تأهيل الزوجين ليقوما بواجبهما في تربية الأطفال بدنيـــًا ونفسيـــًا وسلوكيـــًا، وقد كسب توني بلير زعامة حزب الحافظين منذ تسع سنوات لأنه ألف كتابا عن التعليم، وقد قرأت هذا الكتاب ووجدت أنه يقول فيه أن كل طفل يولد ثم يبدأ في الذهاب إلى روض الأطفال، وأنه لابد من أن يتم عمل عقد اجتماعي يوثق في الشهر العقاري، لأن مسئولية مستقبل إنجلترا في يد الأم والمدرس، ذلك مثل يبين كيف تبني الدول مستقبلها، وهنا أذكر أيضا في كتابه أنه لا سبيل لفصل تلميذ من المدرسة مهما فعل. لقد كنت وزيرا للصحة في وقت أزمة ١٨-١٩ يناير ١٩٧٧ التي كانت قلقًا في الشباب، وفي ذلك الوقت زارني اثنان من وزراء الصحة في إنجلترا وكان لابد من أن أرد لهما الزيارة ومنهما وزير صحة المعوقين والذي كان أصم وأبكم وعضوًا في مجلس العموم البريطاني وكان لا يتوقف عن الكلام بمساعدة مجسات حساسة تم تركيبها على حنجرته يحول حشرجته إلى معانٍ. لقد طلبت أثناء الزيارة أن أرى كيف يتعاملون مع الطفولة والشباب في إنجلترا، وذهبت إلى قرية اسمها جرين ويتش (هي التي يقوم العالم بضبط ساعته على توقيتها) وفي هذه القرية توجد منطقة اسمها بركستون فيها سجن يرأسه أستاذ في الأمراض النفسية في جامعة لندن، وقد وجهت إليه سؤالا حول كيفية معاملة النشء في إنجلترا فأوضح لي أنهم يقسمون الأطفال من الولادة إلى ثلاث فئات: الفئة الأولى والتي تمثل ٩٨% من أطفال إنجلترا وهي التي تتشكل من الأطفال الأسوياء تنشأ في أسرة سوية مكفول لها رتابة العيش، وقد تمكنوا أن يحددوا ذلك عن طريق ما يسمى الممرضة الاجتماعية والتي تزور كل سيدة متزوجة وعلى وشك الحمل

لتتابع ظروفها بشكل عام وتقيم ما إذا كان من الممكن أن تستقبل هذه البيئة طفلا من حيث الاستقرار والنظافة وتوفر سبل العيش الشريف، وإذا ما توفر ذلك تكون هذه فئة أولى، أما الفئة الثانية فإنها تحتوي الحالات التي قد يكون فيها الأب منحرفـــًا أو الأم غير سوية وفي هذه الحالة تُعطى هذه العائلة إنذارًا لمدة ستة شهور قد تمتد إلى عام، يتحدد خلالها تحسن أوضاعهم، فإذا حدث ذلك استمر الطفل في حضانتهم وإذا حدث عكس ذلك فإنه يتم فصل الطفل عنهما وإعطائه إلى أسرة حاضنة بحيث يستمتع الطفل بالتربية السوية. والفئة الثالثة تشكل أقل من ١% من المجتمع الإنجليزي وتختص بفئة من يولد في صورة مختلفة، وقد ظهرت هذه الظاهرة في دراسات علوم الوراثة Genetically determined behavioral ethics، حيث يظهر جين في الطفل يحمل آفة الإجرام، وهذه الفئة يتم عزلها اجتماعيـــًا حتى يتم نضجها وتصحيحها وتأهيلها وتوفير فرصة عمل لها في مهنة تمتص الطاقة الإجرامية التي يحملها، وعلى هذا الأساس يمكن تتبع من يرتكبون بعض الجرائم في منطقة معينة، من هنا نتبين أنه بالتأهيل الاجتماعي يمكن أن ينضبط التخطيط الاجتماعي من خلال تأمين طفولة سوية من خلال تحقيق رعاية اجتماعية وآمنة في ظل تنشئة عقائدية هادفة تؤدي إلى تمسك الأطفال بسلوك حميد والتزامهم بفعل الخير، مع التأكيد على الاهتمام بمرحلة الطفولة والمراهقة في رعاية كاملة، وتوفير التعليم الأساسي الإلزامي والثانوي بالمجان للجميع كذلك الارتقاء بالتعليم والمدرسين والتدريب الفني مما يسمح باكتشاف مواهب الأطفال من خلال الأسرة ومرافق التعليم، ورعاية ذوي الاحتياجات الخاصة، ومن يعيشون في ظروف صعبة ومعالجة المسببات وكذلك رعاية الموهوبين، وكذلك التعاون دوليًّا بين الحكومات لتحقيق سبل المساعدة والدعم للأطفال عامة من خلال الآليات الدولية.

ومن المبادئ التي يجب مراعاتها غير ضرورة احترام أحكام الشرائع واحترام التشريعات المحلية للدول، بأهمية الاهتمام بإعطاء أولوية عليا لحقوق الأطفال وحريتهم ومصالحهم وحمايتهم وتنميتهم، وتأكيد المساواة بين الأطفال في الرعاية والحقوق والواجبات، كل ذلك مع التزام عدم التدخل في الشئون الداخلية لأية دولة، وكذلك مراعاة الثوابت العقائدية والثقافية والحضارية المطلوبة للتنشئة السليمة، مع ضرورة احترام حقوق الطفل المنصوص عليها وتنفيذها، واحترام حقوق الوالدين أو الأوصياء والمسئولين، بالإضافة إلى ضرورة تحقيق المساواة لجميع الأطفال للتمتع بالحقوق والحريات، بغض النظر عن الجنس أو اللون أو العقيدة أو اللغة. وكذلك، الحق في سلامة الحياة للطفل منذ كونه جنينا في بطن أمه والتأكد من حظر الإجهاض إلا في الحالات الضرورية والتي تكون من أجل مصلحة الأم أو الجنين، وضمان حق الطفل في النسب والتملك والميراث والهبة والنفقة. كذلك كفالة مقومات البقاء والنمو مع حماية الطفل من العنف وسوء المعاملة والاستغلال، وأهمية تحقيق الهوية بالنسبة للطفل وضمانها من خلال الحق في اسم منذ الولادة وتحديده، وإثبات نسبه وجنسيته ووالديته وذوي رحمه من الرضاعة.

من أطرف ما قرأت رسالة علمية كتبها المرحوم الدكتور عبد العزيز صالح عن التربية عند قدماء المصريين تقول عن المصريين منذ فجر التاريخ يعانون من الشعور الدائم بالحسد، وأنه لكي لا

يعرف الجيران أن المرأة أنجبت ولدًا فكانت تسميه عقربا أو ثعبانا أو ثورا وذلك اعتقادا منها أنها تكسر عنه الحسد، وفي الحديث الشريف يدعونا الرسول عليه الصلاة والسلام إلى حسن اختيار أسماء أبنائنا. كذلك ضرورة العمل على حل مشاكل انعدام الجنسية بالدولة التي يولد على أرضها أو خارج إقليمها لبعض الأطفال، كذلك، الطفل مجهول النسب والذي له الحق في الكفالة والرعاية دون التبني وله الحق في اسم ولقب معقول بالإضافة إلى جنسية محددة.

هذا ويُعتبر التماسك الأسري من الضروريات التي يجب أن تتحمل فيه الدولة مسئولية تماسك الأسرة وحمايتها من عوامل الضعف والانحلال مع توفير الرعاية اللازمة، بحيث لا يفصل الطفل عن والديه على كره منهما ولا تسقط ولايتهم إلا لضرورة قصوى وبمسوِّغ شرعي وإجراءات قانونية، وأن تراعي الدولة مصالح الطفل الفضلى وقد تقتضي فصله عنهما، بالإضافة إلى أن يسمح للطفل بمغادرة دولته للحياة مع والديه أو أحدهما خارج بلده.

هذا مع العلم أن التربية السليمة حق للطفل على الوالدين كمسئولية اجتماعية وواجبة تهدف إلى تنمية شخصيته وقيمه الدينية والأخلاقية وشعوره بالمواطنة والانتماء. وكذلك تشجيع اكتساب المهارات والقدرات وخاصة من خلال تشجيع التفكير العلمي والموضوعي.

إن التعليم والثقافة والأنشطة تعتبر حقـــًا من الحقوق التي يجب كفالتها لكل طفل مثل حقه في تنمية قدراته العقلية والنفسية والبدنية في التعليم الإلزامي الأساسي مجانا، ومبادئ عقيدته وانتمائه إلى معايير الثقافة الإنسانية، ولذلك يقع على الدولة ضرورة توفير التعليم الأساسي الإلزامي على قدم المساواة لجميع السكان، والتدرج في رفع مستوى الإلزام التعليمي حتى المرحلة الثانوية في ١٠ سنوات للجميع، والوصول إلى حق التعليم العالي لكل قادر حسب رغبته. كل ذلك بالإضافة إلى ضرورة المواجهة الفعالة للأمية أو الارتداد أو التهرب من التعليم أو التخلف عنه. وكفالة حرية الانتساب إلى مؤسسات التعليم الخاصة، وكذلك إتاحة الحق في الحصول على كتب الأطفال والانتساب للمكتبات والاستفادة من وسائل الإعلام المتخصص مع العلم أنه في الدول الغربية يتم توفير مبادئ الثقافة الجنسية الصحيحة لجميع الأفراد عند الوصول إلى سن البلوغ، وعندنا هذه قيمة تعين على التفرقة بين الحلال والحرام عند تطبيقها. هذا بالإضافة إلى ضرورة توفير الحق في أنشطة الألعاب المناسبة لكل سن في وقت الفراغ، والحق في المشاركة في الحياة الثقافية والاجتماعية والفنية، كل ذلك مع تأكيد حق الوالدين في الإرشاد والإشراف على الطفل في ممارسة أنشطته.

وأخيرًا فإن توفير الحق في الرعاية الاجتماعية وتحقيق المستوى المعيشي المناسب من خلال التأكيد على الحق في الحضانة والنفقة لكل طفل منعـــًا للتهلكة والضياع. وكذلك الحق في الانتفاع من الضمان الاجتماعي، والحصول على خدمات مخفضة السعر والإعفاء من الرسوم والضرائب (في وسائل الخدمة والترفيه)، وأن تضمن الدولة للطفل على الوالدين أحقيتهم من الإنفاق في حدود استطاعتهم

شرعًا وقانونًا، وفي توفير مستوى معيشي ملائم لنموه البدني والعقلي والنفسي والاجتماعي، ذلك لتأكيد دور الدولة في حالات محددة لرعاية الطفل في منبت مناسب وكفيل قادر.

إن الرعاية الصحية للطفل جسديـــًا ونفسيـــًا واجتماعيـــًا تعتبر أمرًا ضروريـــًا ابتداء من رعاية الأم الحامل منذ البداية وخلال فترة الرضاعة أو من يقوم مقامها، واتخاذ التدابير اللازمة لخفض معدلات وفيات المواليد، وقد أخبرنا أساتذة طب الأطفال أن ما يتسبب في وفيات الأطفال شيئان: إسهال الصيف والحصبة، ومن هنا تم إصدار قانون للوقاية والعلاج من كليهما، وقد أدى ذلك أن انخفضت نسبة الإصابة في عشر سنوات من ١١٧% الـــ ٤٠ في الألف. هذا ويجب التأكيد على الفحوص الطبية للقادمين على الزواج للتأكد من عدم حدوث أمراض وراثية خطرة، والتدخل في منع الوالدين من الالتجاء إلى إجراءات جينية مستحدثة وغير مضمونة العواقب لتفصيل شكل الجين لما يعتريه ذلك من مخاطر، وضرورة كفالة الرعاية الطبية الوقائية من تحصينات مرضية وتوفير الغذاء والدواء اللازم، وتأكيد حق الطفل في الصحة من خلال توعية الأمهات لتقديم الخدمات الطبية كذلك فهناك ضرورة لتخفيض بعض الأحكام الشرعية أو القضائية عمن ترضعه الراعية شرعًا لمصلحة الجنين أو الطفل، مثل تأجيل بعض العقوبات وتخفيف مهام العمل للمرضع وتخفيض ساعات العمل لها. وكذلك ضمان حق حماية ووقاية الطفل من المواد المسكرة والضارة وتواجدها في المنـــزل، وحق الحماية من الأمراض المعدية والسارية، والالتزام برعاية المعاقين وذوي الاحتياجات الخاصة، والكثير منهم قادر على التميز لو أحسنت رعايته مع تأهيلهم للاندماج في المجتمع. هذا، ويعتبر اتخاذ التدابير لوقاية وحماية الطفل والعمل على عدم امتهان الطفولة من الأمور المهمة والضرورية، وذلك من خلال منع الاستخدام غير المشروع للمخدرات والمسكرات والمواد الضارة حيث يوجد بعض الأطفال للأسف يدمن استنشاق رائحة البنـــزين أو استنشاق الكُلة، وقد حضرت مؤتمرًا في هامبورج عن الإدمان بين الطلاب، وقد قام الألمان بعمل دراسة على خمسين ألف شاب قاموا بتتبعهم من الطفولة إلى سن الشباب، ووجدوا أن الطفل الذي يدخن السجائر في عمر عشر سنوات سيجد نفسه مضطرا في سن ١٥ عاما أن يشرب كحولاً خفيفًا (بيرة) وفي سن ١٨ يبدأ يشرب الويسكي وعندما يصل عمره إلى الفترة من ٢٠ إلى ٢٥ عامًا يبدأ في مخدرات بيضاء خطرة. ومعنى ذلك أن البداية المبكرة في التدخين تسبب في تغمية قشرة المخ والتي تسبب حالة النشوى مما يجعل الشباب لا يكتفي بالسجائر ويتدرج حتى يصل إلى مرحلة إدمان الهيروين.

هذا، ويجب أيضا تحاشي جميع أنواع التعذيب أو المعاملة السيئة والمهينة وغير الإنسانية، ومنع خطف الأطفال أو تهريبهم ومحاربة ظاهرة الاتجار في الأطفال لأي غرض كان، وقد حضرت محاضرة في هلسنكي منذ عدة سنوات تدور حول سيدة أمريكية عاشت ١٥ عاما بين سوريا والأردن وجنوب تركيا وإسرائيل، وألفت كتابـــًا حول سرقة الأطفال واستخدامهم لسرقة الأعضاء، وقد سردت هذه الكاتبة قصصًا مروعة عن هذه التجارة البشعة، مما يجعلنا نؤكد على ضرورة منع الاستغلال بكل أنواعه

وخاصة الاستغلال الجنسي، ومنع عمالة الأطفال أو استغلالهم في عمل يعطل تربيتهم أو تعليمهم أو على حساب نموهم البدني والعقلي وتحديد حد أدنى لسن العمل وساعاته وشروطه مع تجريم المخالفة، وكذلك حمايتهم من التأثير الثقافي والإعلامي الضار والمخالف للأعراف والقيم والشرائع، وحمايتهم أيضا أثناء النـــزاعات المسلحة وعدم إشراكهم في الحروب، مع حمايتهم عند التجائهم إلى دول مجاورة على اعتبار أن ذلك حق قانوني دولي. (وما هجرة الكثير من دارفور إلى دولة تشاد والمشاكل الناتجة ببعيدة عن الأذهان).

سعد مهلل محمد (مدرس اللغة العربية في مدرسة الرمل الثانوية وعضو جمعية أصدقاء مكتبة الإسكندرية):

لقد احترت في السؤال الذي أطرحه على الدكتور إبراهيم بدران بعد محاضرته الجميلة سواء فيما يخص التربية والتعليم أو التربية بصفة عامة أو النصائح الأبوية أو الخبرات، لكن سأركز على مسألة أنني أريد أن أعلم رؤية الدكتور إبراهيم بدران للمشكلات بصفة عامة في مصر والمشكلات الصحية بصفة خاصة، وما إذا كانت اختلفت الآن بعد هذا العمر المديد عما كانت عليه أثناء تولي سيادته مسئولية وزارة الصحة؟

إبراهيم بدران:

في البداية، أود أن أقول إنني لم أؤد إلا الواجب المفروض عليّ، وقد كان شرفـــًا كبيرًا بالنسبة لي أن أحاضر في مكتبة الإسكندرية، فهذا تكريم في آخر العمر.

إن مشكلات مصر مشكلات عميقة وخطيرة صحيـــًا وتعليميـــًا واجتماعيـــًا وسياسيـــًا واقتصاديـــًا، وقد ضاع من عمر مصر خمسون عاما، بدأت بالتحولات الكبيرة التي حدثت في الأعوام الثلاثين الممتدة من ١٥ مايو ١٩٤٨ إلى ١٩ نوفمبر ١٩٧٨. وقد عشنا فيها فترة مليئة بالصراعات والحروب والنـــزاعات، وأثرت نتائج كل ذلك على الشعب المصري تأثيرًا كبيرًا في معظمه كان تأثيرًا سلبيـــًا، وأذكر أنني عندما كنت رئيسًا لجامعة القاهرة وجدت مجموعة من الطلبة يريدون الذهاب إلى عمرة على الرغم من أن الامتحانات كانت على الأبواب وتذكرت يومها كيف أنني عندما كنت طالبًا كنت أتمنى لو يتأجل الامتحان يومًا واحدًا حتى أستغله في مزيد من المذاكرة، المهم، سافر هؤلاء الطلبة دون أن يكون معهم أي شيء، وقد ساعدني الله على مساعدتهم بمبالغ بسيطة ليتمكن كل منهم من أن يشتري هدية لأمه من العمرة، وقد تخلف عن العودة اثنان أحدهما في بكالوريوس الهندسة والآخر في بكالوريوس الطب، وقد سألت طالب الطب – حيث كانت تربطني بكلية الطب علاقة خاصة بحكم التخصص – كيف يمكث خارج البلاد ثلاثة شهور وامتحاناته كانت على الأبواب وهو لم يذاكر حرفًا؟ وقلت له إن أي ترتيب سيحصل عليه سيكون أفضل من الرسوب وضياع مستقبله، فشرح لي إنه قد تعلم في سفره

الكثير وأنه بعد سفره إلى السعودية تم تجنيده وتسفيره بدون إثباتات رسمية إلى أفغانستان حيث علمه الأمريكان ٢٤ طريقة للقتل!! وقد اندهشت قائلا له إنه وبحكم تخصصه كطالب في كلية الطب يقضي حياته يقاوم الموت، وأكثر انتصار للطبيب في العالم هو أن ينجح بفضل الله في أن يكون سببًا في شفاء مريض ميئوسا من حالته، ووسط دهشتي قلت له إن القتل لا يحتاج إلى تجويد وإنه كان يكفيه تعلم طريقة واحدة للقتل !! إلا أنه ظل مقتنعا أنه قد تعلم شيئًا جيدًا في سبيل دفاعه عن ما يؤمن به. وما أود قوله هو أنه بعد ذلك وعبر أحد عشر عامًا بدأت منذ عام ١٩٨٧ إلى عام ١٩٩٨ بدأ التحدي المنتهي إلى الإرهاب واستمر حتى أصبح تحت السيطرة والله أعلم ما إذا كان لا يزال موجودا أم أنه مستتر في طريقه إلى الظهور لا قدر الله. إذن، فمصر قد ضاع من عمرها خمسون عاما في صراعات خارجية وداخلية، تقدم العلم أثناء هذه الأعوام الخمسين بما يساوي ألف عام من عمر الإنسانية، ومازال في تقدم حيث سيتقدم العالم في الأعوام الخمسين المقبلة بما يوازي مائة ضعف العلم الموجود حاليا. كما أن الضغوط الخارجية والاعتماد على المعونات كلفنا الكثير، وقد ذكرت في البداية مقولة فريديريكو مايور وحديثه عن خطورة المعونات، وأنها لا يمكن أن تنتهي إلى منفعة المُعان بل إلى منفعة المُعين ووضع المُعان في مجال يصيبه بالتيه ويضيع عليه عمره ومستقبله، هذه مقدمة لأجيب سيادة السائل.

فهذه هي صورة مصر الآن، والسؤال هو إلى أين المسار؟ وأجيب قائلا إن المسار في أيدينا نحن، فمن بين يديه وظيفة يجودها، وهذه ليست ثورة ولا خناقة سياسية، فالسياسة تسوّس الأمور ولا تسيسها، وفي رأيي، أنه لابد من تحليق كتلة حرجة من المتخصصين يحملون المسئولية لتغيير وجه مصر. وقد سمعت أن هناك تجربة تربوية في الإسكندرية، وسمعت من رئيس وزراء سابق لمصر أن هذه التجربة تم تقييمها وبكافة المقاييس تعد إضافة للجهد لتطوير التعليم في مصر، ويا ليت هذه التجربة تنتشر لأن ما ذُكر عنها في الجرائد قليل على الرغم من أنها تجربة ناصعة في تاريخ التعليم في مصر، وقطعًا قام على إعدادها مدرسون وإدارة جيدة وتوجيه جيد ورعاية متميزة، ومعنى ذلك أن الحل في أيدينا ولن نستورده، ولا يمكن أن نطلب من أحد أن يـــجدد لنا شباب بلادنا، بل نحن الذين نستطيع أن نقاوم لنخرج جيلا حسن التربية وقادر على إعادة بناء هذا الوطن، وهذا الوطن بقي على مدى التاريخ بالرغم من أحداث تاريخية قاسية، وفي عصر الهكسوس وفي عصر المماليك البحرية وصل القحط بالمصريين إلى أنهم كانوا يشربون بول الحمير والبغال، وأنهم كانوا يتقاتلون على التهام جثة كلب ميت ومتعفن كمصدر للبروتين. إذن، فقد وصلت مصر في يوم من الأيام إلى الحضيض ولم تختفِ ولن تختفي أبدًا بإذن الله. وأملنا أن يقوم التربويون من محبي هذا البلد بالمساعدة في نهوضه، إن الإسكندرية منطقة مغلقة في حين أن القاهرة مفتوحة ومتشعبة، وهذا يساعد على أن تجرى فيها التجارب القيّمة والتي يمكن لها النجاح. وأتمنى أن يتم انتهاج التجربة التربوية السكندرية على أن تنمى وتنتشر في بؤر أخرى وهذه البؤر عندما تتكامل سوف تكوِّن مصر التي نريد أن نراها.

إبراهيم زيادة:

عندي سؤالان، هل يؤتي نظام التلقين ثماره؟ ومن ناحية أخرى، هل تؤتي مكاتب التنسيق ثمارها؟ ورأيي الشخصي أن الإجابة هي لا، إذن، ما الحل الذي نستطيع من خلاله أن نطور التعليم في مصر؟

إبراهيم بدران:

إن مكتب التنسيق ليس الوضع الأسمى الذي من الممكن أن يؤهل للتعليم الجامعي، وذلك لأنه يجعل مصير الطالب بعيدًا عن رغبته وأن يؤهل فيما لا يشتهيه، لذلك لا يستطيع أن يتميز ورغم ذلك فالتنسيق أقرب سبيل للعدالة وحفظ الحقوق للكافة. أما السؤال الثاني فأقول إنه لابد من ثورة تعليمية، وهذه الثورة التعليمية تبدأ من كليات التربية، ومنذ عشر سنوات أذهب لزيارة كل رؤساء الوزراء الذين أعرفهم وأقول لهم إن كليات التربية هي مفتاح التقدم لمصر، وفي عام ١٩٨٠ عندما كنت رئيسًا لأكاديمية البحث العلمي أقمت مؤتمرًا عن تطوير التعليم وتفعيل ثورة المعلومات التي كانت تولد في هذا الوقت ومدى انعكاسها على التعليم، وقد كان المؤتمر في فندق المريديان في القاهرة واستمر أربعة أيام، وكنت قد استوردت لأجله على نفقة أكاديمية البحث العلمي تجهيزات ودعوت عشرة أساتذة من فرنسا وإنجلترا وألمانيا وأمريكا، وحضره جميع أساتذة التربية في مصر أملاً في إحداث التغيير، وكان الدكتور عبد السلام عبد الغفار أعطاه الله الصحة عميدًا لكلية التربية جامعة عين شمس، وبعد انتهاء المؤتمر أهديت كلية التربية جامعة عين شمس هذه التجهيزات وكان ثمنها أربعين ألف دولار في ذلك الوقت كانت من المعونة الأمريكية للأكاديمية، وكان في خاطري أنه لا يمكن أن يكون هناك باحث علمي دون مدرسة ابتدائية جيدة، وبعد شهرين ذهبت في زيارة للاطمئنان على التجهيزات، ووجد من يقول لي إنه خجل مني وأن اتجاه الأساتذة والتلامذة إلى التفكير في أن إدخال التكنولوجيا المستحدثة معناه خراب بيوتهم لأنها تمنع الدروس الخصوصية، وتم إيقاف الاستفادة من هذه التجهيزات، واليوم، بعد خمس وعشرين عامًا صار التعليم الإلكتروني السبيل الأوحد للوصول إلى المعارف المطلوبة للحاق بما أحرزه العالم من تقدم، يا ليتنا استجبنا.

محمد الزناتي:

كيف أتبع الأسلوب العلمي في بلد لا تشجع هذا المنهج وقصة الدكتور أحمد زويل برهان على ذلك؟

إبراهيم بدران:

إذا وصلنا لدرجة اليأس فلنهاجر ونترك بلادنا لتصبح جزءًا من الصحراء الكبرى التي لا يقطعها سوى النيل!!!! لا يأس مع الحياة، وعلى الرغم من أن قدمي قاربت القبر إلا أنني لا أيأس أبدا، فما بال الشباب أمثالكم أنتم مسئولون عنها، لابد أن يبدأ الإنسان بنفسه ومن حوله ومن يعيله كتلميذه أو ابنه أو المحيطين به. أما الدكتور أحمد زويل فهو رصيد مصري مودع في بنك عائده مضمون لوطنه في كل وقت.

محمد الزناتي:

أعمل باحثًا وكلما قمت بعمل بحث جديد تخرج الثعابين من جحورها لمحاربتي وضربي من الظهر، وعندما جاء الدكتور أحمد زويل لإنشاء جامعة العلوم والتكنولوجيا قاموا معه بقص الشريط ووضع حجر الأساس ثم طالبوه بأن يأتي بأموال لتمويل المشروع فرد قائلا إنه ليس بتاجر، وفي نفس الوقت نرى ملايين الدولارات التي تم صرفها على مدينة الإنتاج الإعلامي التي لا أعرف حتى الآن ما وجه أهميتها وما هي وظيفتها؟

إبراهيم بدران:

القضية في عالمنا النامي هي صعوبة الأولويات عند التخطيط الاجتماعي.

روحية أحمد (أستاذ مساعد بكية الآداب جامعة الإسكندرية):

ما هي الكيفية التي يمكن من خلالها النهوض بأطفالنا مع هذا الكلام الرائد وما مدى تطبيقه؟ وقد تم وضع أمل التنمية البشرية في رحم الأم ثمرة ترعاها ثم في نتاج أسرة ومدرسة ثم مجتمع كبير، وهل يمكن إيجاد طريقة لبث التفكير العلمي في أطفالنا حتى لو كانوا يسكنون في كفر أبو دومة؟

إبراهيم بدران:

لا يوجد مستحيل، وإذا توفرت مجموعة مؤمنة بالقضية، فلابد أننا سنصل إلى محطة التقدم، ونحن نعيش في زمن فيه تفاعلات داخلية وخارجية كثيرة، وقديما كنا نسميه زمن جلد النفس، لكنه الآن وصل إلى قسوة قتل النفس بغرض أو بدون غرض، وأنا أقرأ الصحافة جميعها، فلا تصدر جريدة لا أقرأها، وأحمد الله أنني لم أنتحر حتى الآن بسبب قراءة الجرائد فقط، وعندما أحضر إلى مكتبة الإسكندرية تصل روحي المعنوية إلى أعلى مستوى لها، ولكن غدًا صباحًا (الأحد صباحًا) سوف أتسلم خمس جرائد معارضة غير الجرائد اليومية، وأقسم بالله أنه لولا إيماني العميق جدا لكنت تركت الدنيا ورحلت بعد قراءة هذه الجرائد كل أسبوع. لكن وعلى الرغم من كل شيء لابد من تنمية روح المقاومة، لأن هذه البلد مصانة بفضل المولى وقوتها الكامنة، فقد عاشت سبعة آلاف عام في شمال شرق إفريقيا وبقت على الرغم من أن العالم كله تغير من حولها، ومنذ مائتي عام لم يكن هناك أي وجود لأسماء هذه الدول الأوروبية الموجودة حاليا، وفي قناعتي التي أؤمن بها أن أمريكا أمامها خمسون عامًا على الرغم من غناها الواسع وذلك لأن معاول الهدم والظلم والقوى التي تتبناها اليوم هي معول هدم لتلك الحضارات الطاغية عليها، وهم من يريدون وراثتها وعندها إذا ورثوها فسوف يقضون عليها ويمحونها، هذا توقعي. ونعود للقول إن المفتاح في أيدينا وأنه علينا أن نقاوم بمساعدة من هم مثل الدكتور أحمد زويل الذي تعود علاقتي به إلى عام ١٩٧٤، عندما كان أستاذي ومدرسي الدكتور عبد الرحمن الصدر رحمه الله نائب رئيس جامعة الإسكندرية للدراسات العليا

والبحوث والذي قام بالتدريس لي قبل أن يحضر إلى الإسكندرية، وقد اتصل بي ذات يوم وطلب مني أن أتصل بالسفارة الأمريكية لأنهم بصدد إقامة احتفالية في مركز البحوث والدراسات العليا القائم حتى الآن في شارع أبي قير في الإسكندرية بمناسبة ظهور علم جديد اسمه "الليزر"، وقد أطعته، واتصلت بالفعل بالسفارة الأمريكية حيث قاموا بإرسال المستشار العلمي للسفارة كان اسمه مستر هومان، فسألته عن هذا العلم الجديد فاتضح أنه لا يعرفه وأنه سيسأل، وبعد أسبوعين جاءني وأخبرني أن رقم واحد الآن في هذا العلم الجديد شاب اسمه أحمد زويل، ودعوناه لحضور الاحتفالية ومن يومها عرفته وتنسمت فيه العبقرية منذ أن جلس أمامنا ليحدثنا لأول مرة عن الليزر وكأنه يشرح ألف باء، وذلك بتبسيط ومعرفة ووسامة ولغة ولباقة، وفي العام الماضي، كنت أحضر مؤتمرا في كوالامبور عن العلوم الإسلامية، وكان من ضمن الحاضرين في المؤتمر رئيس مؤسسة نوبل ونائب رئيسها وذلك لكي يلقوا محاضرات عن مؤسسة نوبل وجوائزها، وفي أثناء الحديث ذكر رئيس المؤسسة أن هناك عالمـــاً سبق وحصل على جائزة نوبل في عام ٢٠٠٠ وأنه إذا استمر في الطريق الذي يسير فيه فسيحصل عليها ثانية في عام ٢٠٠٧، ولم يستطع قراءة الاسم ثم عرض صورته فوجدناه أحمد زويل، أليس هذا نتاج هذا البلد ... مصر.

سعيد حسن زلط:

تمتعنا بالسيرة الذاتية للدكتور إبراهيم بدران والتاريخ العلمي الأكاديمي المثالي الراقي كأنه كان لدولة متقدمة وليس في مصر. وأتساءل كيف استفادت اليابان وماليزيا من قدرات إرادة شعبها كقيمة مضافة تحليلا وتفصيلا وليس الانبهار فقط في كل أحاديثنا؟ وما هي الوصايا العشر الصحية لمصر تحليلا واقعيا عمليا مع ملاحظة ألا ننسى أن في مصر أكثر من ٤٥ مليون فقير يتقوتون بدولار واحد في اليوم وذلك في ظل تقرير التنمية الإنسانية الصادر من الأمم المتحدة. كنا نتمنى أن نتحدث عن موضوع الفقر وتدهور خدمات التأمين الصحي في مصر لمواجهة الانتشار الاستغلالي للمستشفيات الاستثمارية وموضوع نقل الأعضاء.

إبراهيم بدران:

هناك مجموعة عمل أعمل فيها مع زملاء في شعبة الصحة في المجالس القومية المتخصصة حول مشكلات التأمين الصحي، وقد اقتربنا من الانتهاء من إعداد التقرير النهائي، وما سأنهيه سأرسله إلى مكتبة الإسكندرية للتباحث حوله وعرضه.

ليلى موسى:

هل نستطيع التغلب على ثقافة الخرافات والخزعبلات؟ وكيف يمكن أن يحدث ذلك؟

إبراهيم بدران:

هذه مسئولية العارفين، لو خرج من كل قرية متعلم وعاد ليعطيها من وقته ساعتين يجلس فيهما مع الناس ويتحدث معهم، فمن المؤكد أنه ستنتهي الخرافات، فكلنا ننتمي إلى القاعدة الجماهيرية المصرية، وكلنا من أكبرنا إلى أصغرنا لو لم يكن آباؤنا فعلى الأقل أجدادنا من أصول متواضعة عملها فلاحة الأرض. وللأسف الشديد، هناك جزء من بقايا الاستعمار، خلق طبقة تعلمت وانفصلت بالكامل عن جذورها، وهذه مشكلة كبيرة للغاية، ولا يحدث هذا عشوائيا ولكنه تخطيط مرسوم، ولدينا المثال في العراق والحرب الأهلية الوشيكة هناك بين الطوائف المختلفة والديانات المختلفة، ولا أصدق أبدا أن الطائفة السنية أو أتباع الديانة المسيحية هم الذين هدموا قبة مسجد الإمام علي الهادي، ولكن كل هذه خدع أمريكية لتخفيف العبء على الجيش الأمريكي في العراق، ولا تفسير لها غير ذلك، لأنه من غير المعقول أن يهدم مسلم مسجدا خاصة إذا كان ضريحًا لأحد من آل البيت، وبالطبع لا يمكن لمسيحي أن يفعل ذلك. كذلك الدعوة إلى الانفصام الجغرافي بين طبقات الشعب وبعضها البعض انفصام مخطط وليس أوتوماتيكي لأنهم تعايشوا سويا عبر التاريخ.

كمال إسحاق (مهندس استشاري):

نشكر الدكتور إبراهيم بدران على أنه أعطانا حصانة ضد اليأس، وأشعر اليوم ببناء روحي وليس فقط بناءً فكريًّا، وقد تعلمنا اليوم من الدكتور إبراهيم بدران الإيمان بالوطنية والإيمان بمصر، وفي الكتاب المقدس نقرأ "مبارك شعبي مصر"، فقد خص الله هذا الشعب دون سائر الشعوب، فليطمئن قلب كل مصري أننا شعب مبارك ولن نضيع. وأتساءل: لقد قال الدكتور إبراهيم بدران إنه حتى المشلول أثبتت التجارب موهبته وإنتاجيته، وكل طفل فيه نعمة وموهبة، فلماذا لا توجد في بلادنا مؤسسات ترعى الأطفال الموهوبين بعد اكتشافهم عن طريق الأسرة أو المدرسة أو المدرس؟ أيضا، كيف تتم الاستفادة من التفكير العلمي في حياتنا الشخصية وفي أمورنا الحياتية وفي حل مشكلاتنا، وبالتالي نستطيع أن نحل مشكلات البلد كلها؟

إبراهيم بدران:

يحمي الله مصر ويتأكد الأمر كما قلت في الكتاب المقدس، وقد رأيت منذ عدة أيام في التليفزيون شخصًا وزوجته يقومان بتبني الموهوبين في الرسم والتصوير، وقد اكتشف أحمد بك شوقي الموسيقار محمد عبد الوهاب، لكنه اكتشفه في عالم مختلف عن الآن. وقديما، كانت كلمة "مذاكرة" أملا وشحنة وعزيزة على نفوسنا جميعا. أذكر أنه قبل أن يتم بناء مستشفى المنيل الجامعي كانت توجد ساحة من الرمال، وكان بالقرب منها منـــزل المرحوم سليمان عزمي باشا المنشئ لعلم الأمراض الباطنة، وكانت ساحة الرمال مرتعا للعب الكرة لي ولأصدقائي في الفترة الصيفية وكانت بعد الظهيرة، وكان البواب يعدو وراءنا شاهرا عصاه

ليمنعنا من لعب الكرة قائلا: "يا ولد ابتعد إن الباشا نائم الآن لأنه يذاكر ليلا"، ومازالت هذه الكلمة ترن في أذني حتى الآن، حتى الباشا يذاكر ويقرأ ويتعلم، ومنذ أن سمعت هذه الكلمة لم أتوقف عن التعلم ولا عن القراءة ولا عن شراء الكتب. إضافة لذلك فلكل منا دور في المجتمع، وفي أحد الأيام، كنت ضيفًا على أحد البرامج التليفزيونية وعندما سألني المذيع عن أبواي فقلت له إنني قد تربيت يتيما حيث توفيت والدتي وأنا أبلغ من العمر أربع سنوات. وفي اليوم التالي لإذاعة هذا اللقاء وجدت في عيادتي سيدة متشحة بالسواد وبرفقتها أربعة أولاد، وعندما سألتها عما يؤلمها قالت لي إنه لا شيء يؤلمها وإنما جاءتني بعد أن سمعتني في التليفزيون أقول إنني تربيت يتيمًا وهؤلاء الأولاد الأربعة منذ وفاة والدهم يمتنعون عن الذهاب إلى المدرسة، وأنها قد قامت بدفع كشف في عيادتي حتى أخبرهم أنهم ليسوا الوحيدين في هذه الدنيا الذين ذاقوا مرارة اليتم وأن أمامهم أستاذ دكتور قضى حياته يتيما، وقد مكثت مع هؤلاء الأولاد الأربعة ساعة كاملة أتحدث معهم، وقد ظل هؤلاء الأولاد يترددون على عيادتي سنويـــًا وطالما حدثتهم عن أن اليتم ليس إعاقة ولكنه تجربة حياة، وهو مدرسة تحفز على الاعتماد على الذات، وفي الحقيقة، إن استطراق الرحمة في البشر قضية غريبة جدًّا، وأنا أذكر كمية العطف التي تمتعت بها من إخوتي العشرة الذين كنت أصغرهم، ومن الجيران والأقارب والمعارف، فإذا كانت الرحمة في قلب الأم كبيرة فقد توزعت بقدرة الله على قلوب كل هؤلاء. إذن، فلو حاول كل منا أن يقوم بعمل إيجابي نحو مشاركيه في مجتمعه، فلم تكن مصر لتصل إلى ما وصلت إليه، بل ستتحسن، وقد سمعت تجربتين في الإسكندرية أحدهما التجربة التربوية والتي أتمنى أن يتم تسجيلها وتقييمها بداية بإقناع وزير التربية والتعليم الدكتور يسري الجمل السكندري الأصل والذي لابد أنه يشترك في الرؤية، وبالإمكان أن يكررها في ثلاث أو أربع محافظات كل عام أو عامين على أن يقوم بانتقاء مجموعة تريد بالفعل تحقيق إنجاز حقيقي، وأنا أؤكد أن بلادنا حافلة بمن يريدون أن يخدموها حقا لكنهم يجهلون الطريق الذي تاه بعيدا، وعلى الرغم من أننا شعب واحد، إلا أن هناك دومًا من يسعى إلى بعثرتنا. أما التجربة الثانية التي حضرتها بنفسي كانت عندما كنا بصدد الاحتفال بعيد أكاديمية البحث العلمي في عام ١٩٩٠لأنني لم أنقطع حتى الآن عن الأكاديمية ولا أستطيع الابتعاد عنها لأنها قوة فاعلة في هذا المجتمع و لم تأخذ حقها حتى الآن، المهم، أنه سعدت بدعوة مهندس سكندري شاب لا أذكر اسمه مسئول عن تمويل مشروعات صغيرة، وقد احترمته وأعززت فيه أنه قام بإنجاز ستة وأربعين ألف مشروع صغير ومتناهي الصغر في الإسكندرية وكلها مشروعات ناجحة، واستطاع أن يجعل ٩٩% من القائمين على هذه المشروعات تنجح لدرجة تجعلهم يعيدون قيمة التمويل ليعمل به مرة أخرى، فالإسكندرية مدينة تظهر فيها النعمة، لذلك أتمنى تسليط الضوء على هذه التجارب شحنًا لأمل لا يضيع والإنسان المصري قادر، ويجب أن نؤمن أنه لا يمكن أن يستمر الظلام والناس، ومصر على مسار تاريخها منحنى أحداثها يتصاعد ثم يهبط ثم يعود ليرتفع مرة أخرى، وقد آن الأوان أن ترتفع بإذن الله ومشيئته.

عادل أبو الخير (دكتور):

ربما لا يذكر الدكتور إبراهيم بدران أنه كان من الرعيل الأول في المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وقد علم أجيالا من العلماء أصول الدين الصحيح، وسؤالي هو هل في نظر الدكتور إبراهيم بدران أن يُترك الطفل الذكر لعناية الأب والأنثى لعناية الأم أم أن كليهما يشتركان في الرعاية والتعليم في الصغر؟ وما رأي الدكتور إبراهيم بدران في قانون الخلع الجديد والذي يخلع زوجة من زوجها وعندها أطفال صغار مازالوا في مرحلة التكوين وهم في حاجة إلى رعاية الأب مع الأم، وهل يصلح هذا القانون لظروفنا الصعبة في مصر؟

جابر عصفور:

سوف يجيب الدكتور إبراهيم بدران عن السؤال الأول فقط، أما السؤال الثاني والخاص بالخلع فمن الممكن أن تسأل عنه مفتي الجمهورية الدكتور علي جمعة ضيف المحاضرة القادمة ليوم ٨ إبريل ٢٠٠٦ والتي ستحمل عنوان "مكونات العقل المسلم وتجديد الخطاب".

إبراهيم بدران:

إن الأم منبع حنان تمنيته وتصورته دون أن أمارسه لأن والدتي توفيت وأنا نائم بجوارها وكان عمري وقتها حوالي أربع سنوات، والأب لا غنى عنه، فالأم مخزون حنان والأب عسكري شرطة راعٍ عطوف يوجه الطريق حتى لا تكون هناك حوادث، وهذا هو التصور الذي يحضرني عن دور كل منهما.

وليد أحمد ربيع:

أعمل حاليا في مجال التدريب، وأقوم بتدريب المدرسين على موضوع التعلم السريع، ونقوم حاليا بالتعاون مع بعض الزملاء التربويين والمتخصصين بوضع منهج يمكن تدريسه في التجريبيات بإدارة برج العرب بحيث يهتم هذا المنهج بالتعلم السريع والتفكير العلمي، فهل يمكننا التواصل مع الدكتور إبراهيم بدران للاستفادة من خبراته في هذا المجال؟

جابر عصفور:

يمكنك أن تلتقي بالدكتور إبراهيم بدران بعد المحاضرة ليساعدك فيما تريد وسيسعده أن يفعل.

محمد أبو الحمايم:

من أين نبدأ التطوير في التعليم: من الطالب أم المدرس أم النظام؟

إبراهيم بدران:

رأيي في التعليم أن نبدأ من ناحيتين، ناحية طويلة المدى وناحية من الممكن أن تأتي أُكُلها في وقت أقصر بكثير، إن التعليم لابد أن يبدأ تطويره من الحضانة والابتدائي، وعائد الإنفاق على التعليم الابتدائي أكثر من عائد الإنفاق على ما تلاه من مراحل سواء إعدادي أو ثانوي وهذا على المدى الطويل، أما الناحية الثانية أو العلاج السريع الذي من الممكن أن نرى نتائجه على المدى القصير فهو تطوير الجامعة مباشرة، إن تطويرها أمر حتمي وجبـــري لمجتمع يحتاج إلى قفزة، وإذا لم تتطور الجامعة فلا أمل على الإطلاق في نهضة البلاد، ولابد أن تعود هيئة التدريس إلى التدريس، فقد انفرط عقد الاستقرار الجامعي بعد ازدياد مشكلات الحياة، وأخذ كل شخص يبحث على وظيفة خارج الجامعة، فأصبحت الجامعة عبارة عن عملية تُتابَع يُعطى فيها الدرس ثم يرحل الأستاذ، ويجب أن يتغير هذا، فمتعة المدرس هي تواصله مع تلامذته وأن يعكس عليهم شخصيته، وقد سألني أحد تلامذتي عندما كان مديرًا لجامعة الزقازيق، وكنت أحضر احتفالا في الجامعة فسألني عن الثروة التي اكتنـــزتها؟ فاندهشت بشدة من السؤال والحق إنه كان رجلاً طيبـــًا وبريئًا لم تلوثه المدنية فأجبته أن ثروتي هي أربعة عشر جراحًا ناجحًا وكلهم فيهم جزءٌ مني أو أنا فـــيّ جزءٌ منهم، وعندما يطبع الأستاذ طريقته وأسلوبه على تلامذته يكون لديه كنـــز كبير، وأنا لم أؤثر في ابني كما أثرت في الجراحين الأربعة عشر، وفي يوم من الأيام كانت حرم أحد وزراء المالية تقوم بإجراء عملية في أحد المستشفيات في لندن، وذهب لزيارتها أحد الجراحين وكان أحد تلاميذي وقد سَأَلَـــتْه ما إذا كان ابني فأجابها بالنفي وسألها عن سبب هذا السؤال وما إذا كان هناك شبه بيننا، فأجابته بأن المسألة ليست شبهًا شكليـــًا ولكن تطابقًا تامًّا في طريقة الحديث، ولم أشعر في حياتي بقيمة المدرس إلا عندما حكت لي السيدة الفاضلة هذه القصة، ولنتصور أن يعطينا الله الفرصة أن نطبع شخصياتنا على إنسان آخر يكبر ويصبح أستاذا يُشار إليه بالبنان، إنها نعمة كبيرة، وقد كان لنا زميل في الكلية يتساءل متعجبـــًا عن سبب عدم الانضباط في الكلية، ثم علَّق عليه آخر قائلا هل يستطيع أحد أن يجمع الدجاج إلى قفص فتحنا بابه وأطلقنا ما فيه وسط ميدان التحرير؟! إن كل وزير تعليم عالٍ يتم تعيينه أذهب لتهنئته وأحكي له هذه القصة، وأقول له إنه إذا نجح في إعادة جمع الدجاج الهارب من قفص الجامعة فسوف يخدم مصر خدمة لا تبارى، وقد تربينا في الجامعة حيث كان الأستاذ لا يتركنا طوال النهار، وكنا نتعلم من أساتذتنا حتى ونحن نركب المصعد معهم، وكانت علاقتنا بهم سلوكية أيضا وليست لتعلم الطب فقط. وأذكر أن أبي قد مرض بالشلل ثماني سنوات انتهت بوفاته، وكان مُقعَدا وكنت خلال هذه الفترة خادمه، وكان لنا جار تربطنا به صلة حميمة وهو الدكتور أمين بك سلامة رحمة الله عليه، وخلال السنوات الثماني لمرض أبي كان يدخل بيتنا يوميـــًا ليسأل عن أبي، نسمع الجرس في الثامنة مساءً بالدقيقة نعرف أنه هو، يدخل ليسأل عنه وعن صحته ويتطوع بالكشف عليه ثم يرحل، وظل على هذا الحال ثماني سنوات كاملة بشكل يكاد يكون يومي لا يكل ولا يمل. إن المحبة التي تميز مهنة الطب لا يعادلها شيء في الدنيا كلها، لكن للأسف أصبحت الدنيا الآن ماديات، وقصص الحياة بكل حزنها وفرحها مدرسة كبيرة لكن لا أحد يتعظ منها، ولا أحد يتفهم أن عليه

مسئولية لابد من أن يؤديها، وأتساءل أين الود الاجتماعي؟ هل قضت عليه سرعة إيقاع الحياة؟ هل زادت الماديات عن اللازم؟ هل غيـــّر الزحام البشر؟ ..... والله المستعان وإليه المصير.

جابر عصفور:

بهذه النهاية نكون وصلنا إلى نهاية هذا اللقاء، وأظن أنكم من خلال ما استمعنا إليه أجدني أقول إنني أنتسب إلى جيل سعيد الحظ لأننا عملنا في جامعة يرأسها هذا الرجل نادر الوجود.